تراتيل عزاء البحر

رواية

دينا سليم

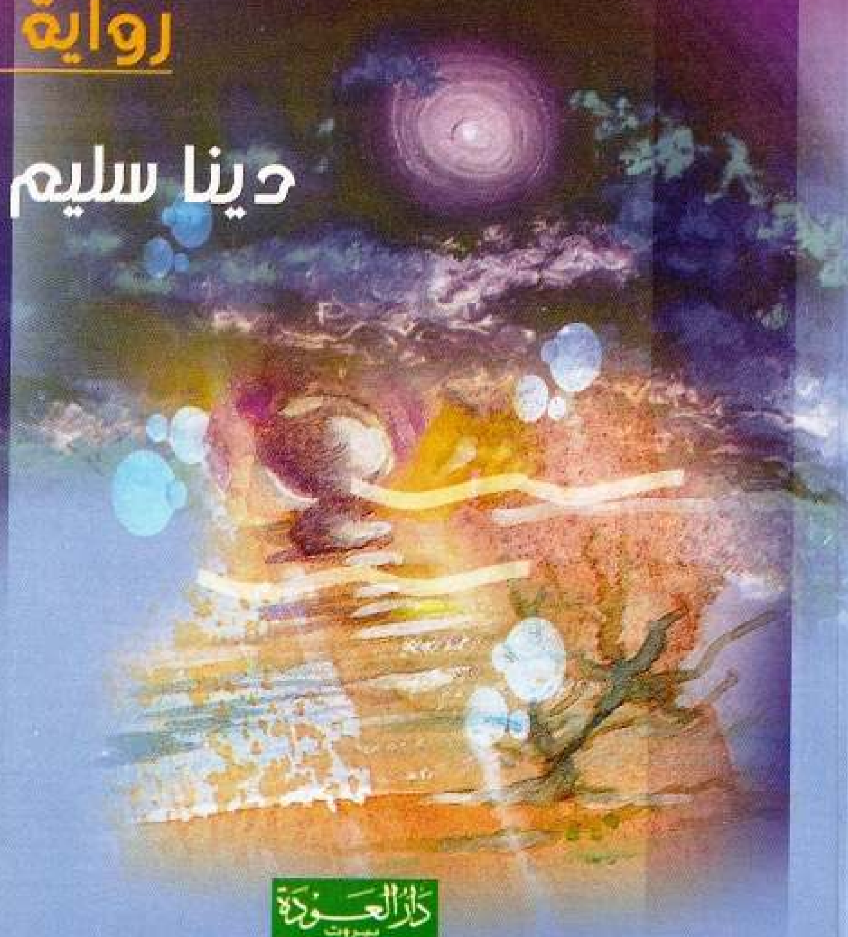

دار العودة
بيروت

تراتيل عزاء البحر

للروائية دينا سليم

سنة 2007

(دار العودة بيروت) تلفون: 01818405

الإهداء

لا ألوم عاشقاً بالهوى متيماً ينحني أمام كرب المصير وأحكام القدر.

لو أدرك سُبل الحق لما انحنى للريح العاتية، طلاسم الأمواج، ولِما جُرِفَ نحو الأمل الواهي يستضيء بسرابه.

أخاطب من يستطيع تحويل المداد بلون الشّمس، الدّماء الى عفوية الزّرقة وتزاوج الحب بالعدل.

الى أبي الذي أبى أن يبقى في محفل الغرباء

قائلاً

" الغربة تولد الغربة كما الحب يولد الحب "

اليكم دائما أهدي هذا العمل لعله يدخل

طقس الديمومة

دينا سليم

البداية

انهمك الأطفال بالرقص يدورون داخل الحلبة يرتمون بأحضان المهرجين مودعين آخرلحظاتهم في هذه البلدة السياحية الجميلة. خمس دقائق وتنتهي رحلة صيفية وينتهي فصل محمل بالعشق والهوى .

خمس دقائق ويصل القطار محطته الاولى, وبعد ثماني عشرة ساعة سيتوقف يلقي بأعباء الصيف الذي يعج بالنزلاء.

أناقة الراقصين الشباب وضحكاتهم الهستيرية لم تدع (زينة) إلى الإلتحاق بالحلبة, أحست بتساؤلاتهم، فاضت عيونهم حية وأخذ صمتها يشق قلوبهم المندهشة.

كانت مشتتة الذهن ذاهلة تراقب المحطة المكتظة بقلق واضح. استمرت بالبحث، أخذها حنينها اليه بينما القطار يأخذ مسيره نحو رصيف رقم 5. رقم صغير لرحلة طويلة مباشرة.

أحبت المدينة التي زارتها كسائحة, وتشعر الآن أكثر من أي وقت أنها تترك بها جزءًا من جسدها. تعلقت فيها كطفلة تتعلق بذراع أبيها تتمنى ألا تنزل الأرض.

تجمّع المسافرون كقافلة بجانب القطار قبل أن يتوقف وتتابعت العربات تمرّ أمام عينيها تسدل ستارة، توقف البحث, تقرأ كلمات أتى بها علقت على نوافذه النظيفة، واضحة كالشمس (قولي وداعا).

دقيقتين وترحل، لم يصل (حازم)، تتمنى أن يظهر قبل أن تفارق برحلة كانت يوم مجيئها ساحرة.

سارت خلف حقائبها والشيّال مسرعُ يحاول إيجاد طريق المصير الى أقرب باب، يخترق الأفواج بمهارة واضحة يفسح لها الطريق ويستعجلها :

- بسرعة يا فتاتي وإلا فستضطرين إلى إنتظار الجميع.

ذابت ابتسامتها المصطنعة وشحب وجهها وهي تأخذ مقصورتها بجانب النافذة، غطّتها مسحة حزن عارم فظهرت بلا ملامح، مشدودة الأطراف وعيناها منهمكتان بالبحث.

يلوّح لها الشيال من الخارج مودعا, يبتعد الرصيف ببطء، يقبّل النقود وظهر كفه عدة مرات. تنظر إليه برقةٍ، لم يلحظها، لأن العمود في الخارج أحال بينهما, وتتابعت بعده مئات الأعمدة السريعة.

حرصت على عدم مبادلة المسافرين الحديث، أرادت أن تكون لوحدها تسترجع أحداثا جميلة قضتها بمعية (حازم) الذي تخلف عن وداعها.

علمت بنظرات الجميع وأحست بتساؤلاتهم، صمّت أذنيها متعمدة عدم سماعهم. كانت فماً بلا لسان، فضّلت الرجوع الى بيتها كبكماء، تجثو الذكريات تحت قدميها، تلفها، تكبل يديها وتدفئ أعماقها. إنها تعود بقطار ماهر يخوض بحور الذكريات. يخوض الليل القاتم بسرعة ويذيب المسافات من تحته، يدوس أياما جميلة مبتعداً بنشيد شجيّ، يمضي ثماني عشرة ساعة بين الحقول الخضراء والجبال العالية وعاشقة عارية.

رفت عيون المسافرين والليل الدامس يساعدهم على ذلك، إلا عينيها تأخذانها الى أحداث جميلة عابثة بأعماقها، تركض نحو حبيب غائب:

-"ها أنا أركب رحلة اليقين إلى بيتي، أتيه بجداول الظلام والقطار يهدر البلاد، أكلمك من عمق الرهبة، أرسل لك روعة الأحلام, ربما يأتيك الليل مشاركاً بسحر الأشواق".

ويصلها صوتهُ:

- لن أستطيع وداعك هنا، لا تنتظريني غدا في المحطة لأنك ستنتظرين طويلا.
- رحلتي تكون عند المغيب، أخشى أنك تغيّب ما كان بيننا أيضا.
- هو القدر المحتم علينا، لقاؤنا مستحيل فعالمكِ بعيد عن عالمي، سأغادر أنا أيضا إلى عالمي.

يصبح بيتها كمقبرة موحشة, جدرانه باردة فاقد الدفء يحتجزه الصدى، يتقاذفه الفراغ ويلهو به الملل.

ها هي السروة بجانب النافذة، إرتباطها الوحيد هو المكان، غرسها والدها في يوم ميلادها معبرا عن فرحته بمولودته الجديدة, ليبرهن للجميع أنه يفرح بالبنات كما الصبيان، وها هي (زينة) الإبنة الثانية تطرح الغبطة مرة أخرى في نفس والديها.

لا تعلم لماذا تبدلت الأشياء منذ رجوعها، يقلقها التحول المفاجئ, كما أصبحت تقلقها الوحدة، وكأنها خلقت كي تعيش وحيدة، وفاة والديها، شقيقتها واستعادة زوجها لطفليهِ بعد إطلاق سراحه من السجن.
ويضاف إلى رصيدها ميراث آخر، جميعهم يرحلون ويتركون لها أموالهم، وماذا تفعل بها.
يقول لها محاميها :

- لم يصادفني أمثالك، أتعبسين لمرأى النقود؟ ستكفيك حتى تبلغين مئة وخمسين سنة إن شاء الله، إبحثي عن وليف تمرحين معهُ، هلا خرجتِ الى الحياة.

تعود وتستذكر والدها:

- اعتني يا(زينة) بهذه السروة فهي حياتك، إنها المكان والإنتماء، أحيطيها باهتمامك إنها غالية عليّ كثيرًا مثلكِ تماماً.

نمت أمامها وهي طفلة:

- لقد أصبحت السروة توازي طولكِ الآن ...

وبعد سنة:

- أبي! أخشى أن أصبح بطول السروة!

تشعر بقهقهات والدها وتسمعها، تراهُ يربت على كتفها ويضمها الى صدره قائلاً:

- لا تخافي يا حبيبتي, إنها ترتفع الى القمة, مسرورة, ترشدك إلى مسلك السعادة ...
- كيف تظهر سعيدة؟
- بخضرتها ونضارتها ...

* * * *

لم ينجُ من رمقة النادل، نظراته حيّة وحزينة، يلتزم الصمت، يتعمد الإنشغال بغسل أكواب الشاي, وبين الفينة والفينة يسترق النظر إليهِ, يتأملهُ ويحاول جاهدًا معرفة الخطب.
يتخذ نفس المكان ويطلب كأسين من الشاي, كما في الأيام الماضية, يجلس وحيدًا, يتأمل المقعد الفارغ المقابل.
الإثنان يستغرقان تفكيرًا بها، النادل و (حازم) ويسألان نفسيهما السؤال نفسه:

- ترى أين هي الآن؟

منذ دخولهما المقهى, ولأول مرة قبل أيام, والفتاة تسلب عقليهما. صامتة تبتسم بحياء, تتناول كوب الشاي رشفة تلو الرشفة, وتطلب كوبا آخر, وفي أقل من لحظة يكون النادل قد أحضره لها شاكرًا.

استطاع النادل أن يقبض عليهما متلبسين بجريمة مكررة، تبادلا القبل عبر الهواء، تبدو مضطربة تتلفت حولها تتفحص عيون الفضوليين، يكون قد استطاع إيهامها عدم رؤيتهما.

تزعزع كيانه عندما رأى فتاة تشبهها تعبر الشارع، يهبط بسرعة البرق من المقهى يلاحقها، وفي الشوارع الصاخبة يحاول العثور عليها، الوجوه كثيرة وفتاته تختفي بينها.
يتعقبه النادل بنظراته الحزينة, يتمنى لو يستطيع هو أيضا اللحاق بها ويسعى خلفها، يشتاق إليها ويذوب فضولا برؤيتهما وساعة اللقاء ... يتمنى فراقهما وإلى الأبد.

أمِلَ أختفاءها، ربما بذلك يتحول الحب الجارف الذي يربطهما إلى يأس، ينتهي ويتحول إلى ذكرى, فيكون لهُ النصيب في استمالتها إليهِ.
تراقصت السيقان واهتزت الأجساد، اختفت (زينة) بين ضباب المارة تاركة ثوبها وسط الطريق، حاول (حازم) التشبث به وإمساك ذيله, وكلما اقترب منه اختفى مبتعدا طاويا خلفه المسافات.
غرباء الطريق ساعدوها في الاختفاء، لقد عاش معهم سنين طويلة، التقاهم ببشاشة في جميع الأماكن، يحس بأنهم اليوم يصبحون أعداءً له! ألأنه فقد توازنهُ بفقدان جناحه الآخر! هل فعلا فقدها؟ هل غادرتهُ دون رجعة؟ بغيابها تشلّ حركته ولن يستطيع التحليق وحيداً بعد اليوم!

آخر شيء فعلاهُ، التيه في الطرقات التي طرقاها سابقا، كمشاغبين، يطلقان العنان لنفسيهما ولضحكاتهما التي تعالت ووصلت حد السماء.
الأحياء مسكونة بخطواتهما، يصعدان وينزلان سلالمها، تتأبط ذراعه ويشبك خاصرتها بيده خلسة، وبعد دقائق معدودة يصرخ أصبعه الصغير حبا لخاتم زواج.
- اريد لكَ شيئا للذكرى ... قبل أن أغيب عنكَ ... وربما لن نلتقي بعد الآن ...

يطرقان باب الزحام للمدينة الصاخبة، لا يهتديان إلا على الدروب فهي كفيلة بتطويل الدقائق، يشبعان رغبتهما في البقاء معا. فاحت رائحة القهوة من بين الأزقة، تعقباها، فرائحة البخور، تخطياها، ثم السكر المعقود، غبار السيارات وضجيجها. لاحت النوافذ الزجاجية للحوانيت بخيوط الذهب الأصفر، لم تبهرهما! هو شيء واحد استوقفهما واسترعى انتباههما، عجوز في التسعين تتكور على إحدى درجات الطريق، تعصّب رأسها بمنديل، تنكفيئ محتجة تتمتم بلغة متشابكة حروفها، خارج حانوت الصياغة تتذمر بشأن خاتم عرس، وتتوعد حفيدتها بترك خطيبها إن رفض طلبها باختيار الذي تريده، تلطم خدها أسفا وتنتصب نظراتها أمام الكم الهائل خلف النافذة محتارة, وتغرقها ترددا وخجلا فتلعن الأخيرة نفسها والدهر.
فما يكون من الاثنين إلا الوقوع على ظهريهما ضحكاً، يملآن الكون سعادة ويستغرب المارة من سلوكهما، يبدوان كمشاغبين يتخبطان بين الرغبة والامتناع، يدوخان في الكون فيرسمان مصيريهما بخطواتهما التائهة وعيون الحاسدين تستنكر تصرفاتهما!

صمتت أنفاسهما، تخبطت باللوعة وبحزن عارم التقت شفاههما الجافة تتلوع آهاتٍ وسط الطريق العام, وثرثرة المستنكرين تغمرهما، كذلك عينا النادل القاسيتان اللتان لا تناما من فرط الفضول.

*   *   *   *

يطيران يركبان الريح ويمضيان معا، يفترشان السعادة كمأوى. وعندما تغمره الشهوة يغادرها مسرعا يبحث عن مهرب لحالتهِ، يبتعد للحظات ثم يعود فتلتقي نظراتهُ حبيبة محرّمة عليهِ، تعاوده الشهوة فيضطر الى مغادرتها مرة أخرى معاودا الكرة, يفصلهما وأحدهما عن الآخر حاجز منيع، نظراتهُ تسرق منها أماكنها المحرمة، تتملكه صرخة الأرق، يستغيث قاصدا ملاذ حضنها، وكلما قرصت شفتها العليا السفلى يلتهب قلبهُ ولا يجد عزاءه إلا بفتح علبة سجائره بيديه المرتجفتين، يزيل ورقتها الفضية بحركة ماهرة وكأنه يزيل عن محبوبته رداءها.

سيفترقان ...
بعد أيام معدودة كلٌ الى قدره، إنهما يتأرجحان في مكان مؤقت سيطيح بهما الى وطنين مختلفين ... ستبدأ رحلة الوداع ... لم يدركا أن للشقاء أنيسا!
زارا المقاهي وتناولا فيها الطعام، غمّسا لقمتهما في صحن واحد، وتناولا الشراب في آخر يحتسيان الكأس نفسها، وآخر تناوب على طلباتهما الشحيحة، ولكل مقهى نادل ولكل نادل طريقته

وأسلوبه بالتعامل. يتقنون نقل الأخبار الموثقة بالتاريخ، اليوم والساعة فيكون ملفهما قيد نادل الشاي في مقهى الرصيف والذي بدا برازيليا، حليق السالفين, ذهبي الشعر يتقمص أسلوب الجاسوسية.
لاحق المارة، بحث هو أيضا عن (زينة) كطريدة وعن (حازم) كهارب من العدالة وأحيانا نظم لهما المواعيد:

- إنها في الداخل تنتظركَ منذ خمس دقائق.

وعمل على تفريقهما أيضا:

- مرّ من هنا سيدتي قبل قليل، هل تنوين اللحاق به؟ يمكنكِ انتظارهُ هنا.

وجهز لهما المائدة مرارا:

- ماذا تطلب الآنسة؟

وشاكسهما ايضا:

- هنا يطلبون الحلوى مع النسكافيه سيدتي.

وصرعه فضوله:

- هل آتيكما بجدتي تكشف لكما الحظ؟

ويهب فيه (حازم):

- لماذا لا تعقد قراننا أيضا وننهي المسألة حالاً! سندّعي أينما ذهبنا بأن نادل الشاي في مقهى الرصيف قام بتزويجنا!

وفي اليوم التالي يغص المكان بالنزلاء، ما من مكان شاغر، عاشقان آخران يستحوذان على طاولتهما، حيث اعتادا الجلوس. التقيا نادل الشاي وبوقاحة ظاهرة رمقهما باستهتار معلنا:

- " يمكنكما اللجوء الى مكان آخر ... "

أخذها (حازم) من يدها, مرّ بها أمام الجمع الغفير، تابعا ويداهما متشابكتان، تداعبهما نسمة مسائية خفيفة، وصلا شجرة وحيدة تسكن أعلى منحدر تطل على المدينة العامرة، بدأت الأضواء الخابية الإضاءة، أسرع نحوها وبين غصنين وارفين، جلس بتحدٍ وكبرياء متخذًا الأيكة ملاذا والسماء غطاء، لن يدع الهزيمة تتوغله، يختار وجها آخر للحياة أكثر خطورة، يبتعد من الوجوه وأعين الحساد، يستريح في حجرها كطفل، إنه في مكان تتعاقب عليه الفصول، صلب ومتجدد تصارعه الدنيا بحكمتها، ينفخ فيه الأمل.
تغير عليه (زينة) بصوتها الهادىء:

- " لم لا تجلسني مكانك ولو لبرهات، فأنا مصابة بذات الداء"!
- " داؤك التحدي فهو دائي المزمن، ولا أخشى عليكِ لأنكِ تحسنين النهوض بعد السقوط...
- " تصوري لو يكون البحر أمامنا، يا لهُ من منظر خلاب، دعينا نستبدل جميع البيوت المتراصة بغيوم تتصاعد نحو الأفق.. وذلك البرج العالي دائم الإضاءة.. يكون الشمس ساعة غروبها.. وذلك .."
- " ويحك لا أرى أي عمود!"
- " قلت فلنتخيل، استحضيريهِ وقولي بأي ألوان يمكنك الإستعانة من أجل إنجاز لوحة خلابة؟ واستحضري أيضا زوجيّ طيور تجانح السماء بأجنحتها".
- " أظن أيضا تريدني تحويل الشارع الى موجة عاتية والشاحنة الكبيرة التي تتوسطه الى باخرة ".
- " نعم، أشعر بتفوقكِ، وهؤلاء المارة إلى ماذا سيتم تحويلهم يا ترى ؟"
- " لا أعلم ؟"
- " لا يمكن أن يكونوا أسماكاً !"

- " دعيني أفكر بالموضوع... هيا بنا ننهل من لحظة تأمل هادئة، اقتربي إليّ... (تقترب اليه)...أكثر (تقترب)، تعالي اليّ (يحيطها بذراعه)... إلتصقي بي, دعينا نكون موديلا في لوحة".

يكرر حركته الدائرية، الورقة الفضيّة لعلبة سجائره، يمرّر أناملهُ بارتجاف ونظراته لا تبارح شفتيها المعقوصتين بحركة كادت تكون مقصودة، يضغط على سيجارته بين شفتيه المتوهجتين، يستنشق نفسا عميقا يُدخله الى رئتيه ويهرّب لها قبلة من بين الدخان المتصاعد تزيغ لها عيناها اللامعتان، يناشده بريقهما الاقتراب لاحتضانها، فتغيب بمعيته في أعماقه.
تغلق عينيها والدخان الكثيف يلفها, ولم يدر لماذا انزلقت دموعها على خديها! هل الدخان هو السبب أو الحرمان لهُ ضلع في ذلك!.
تداهمه غارة التأمل فتدعه ينسى سيجارته بين إصبعيه دون استنشاقها, فيطول سكنها المتأبط ذراع نهايتها، يسقط رمادها وعيناه لا تزيغان، بدتا خابيتان هادئتان بعد لوعة التوهج. صرخا في أعماقهما يشكوان النغمات الهادئة المنبعثة، إنها تسحقهما، يتحدان فتتحول الى صخب، تتسلل الرغبة المكبوتة.
يفيض الحرمان اللئيم فيملأ زحام الأحلام، ينثر خفايا الأسرار في عتمة فجر يتأخر أو ربما يعلق بأجساد عارية منتحرة.

* * * *

خبت الأضواء وسكتَ المكان. خرجت تبحث بعد سنين طويلة عن خليلها، عبرت حدودا وأسوارا شاهقة، أغرقتها بسمة حافلة وهي ترى نفسها عروسا والطريق مزدحم، تنزل من القطار نفسه نحو رصيف يحن لهواها. لم تعثر لهُ على أثر وعند خطوتها الأولى يعاودها الصدى متنكرا، يتوعدها بالوحدة والحنين لحبيب تحن اليهِ وتشتاق. يمشي داخل ردهات حجرتها تلتقيهِ وتحادثهُ:
- " تعود بعد غياب، تحلق في سمائي ولا أراك، تومىء لي بيدكَ، أشعر بها تلامس خدي بحنان، وبسحر لمستكَ تفقد عيناي دمعتان. ليل يعقبهُ ليالٍ فلا خيار لي سوى الإنتظار، الأيام توحي لي بقربكَ وتليها سنوات تتعطل فيها الخطوات ويستحيل مداها الى مسافات.
أراكَ عبر نافذتي، تجانحها سروة خضراء، أغصانها تحاذي الفضاء, ومن بين كفيها تأتي بوجهكَ. تحمل غبار اسمكَ، ترسمهُ على الزجاج. تأخذ يدي بيدكَ، تشدني إليكَ حافية القدم والأخرى تنتعل حذاءً، لا صبر لديكَ... تراقصني في الهواء. كم وددتُ لو ينحرف كوكبنا، يفقد توازنه ويأخذ مسارا جديدا! لكن كل ما همني الحذاء... بحثتُ عنهُ ولما وجدتهُ علقتُ خلف نافذتي. زارها المطر ماسحا اسمكَ وصدى روحكَ يتغلغل في مخدعي.

- "لم تشاورني الشمس بعد غياب فتأخذ طيفكَ، لم تتمهل لأحفر الذكرى بلمحة منكَ ولم تتأنَ في الرجوع، دعتني للهواجس والليل الطويل، أفكر بالكلمات التي سأقولها لكَ. أبحثُ عن العناوين الجميلة، أنتقي أسماها وأرقها، وفي الصباح ما كان منها سوى إطلاق ضحكة استهتارماجنة خلف الغيوم المحملة بأعباء السفر، فيستضيفني الإنتظار مرة أخرى ويستمر الترحال.
تحوّل الهدوء الخانق إلى سكون بشوش، لمحة حنين ونظرة متوهجة من عينيكَ السّاهدتين، لم أجرؤ على الكلام، عقد لساني وبمكابرة غاصت نظراتي في أعماقكَ، داخل صدركَ المحمل بأعباء البعاد. أشعر بكَ ولا أستطيع رؤيتكَ، قريب وبعيد، موجود ومفقود، يقين وربما كنت كذبة! تناديني باسمي وبسحر فائق أتفوق عليكَ، أناديكَ باحثة عن طيفكَ في أركان غرفتي وزوايا نفسي، عقلي يتحدث عنكَ وشفاهي تمتنع عن

ذكركَ، أعود إليها خاضعة مستسلمة ولم يكن فيها سوى حبر صوتي المجروح على الورق".

يصلها الصباح متأخرا يشف عن نيّات دمدمة الليل الطويل، لقد غاب زمنا عنها ومن وراء نافذتها يطوقها، يخترق جدران منزلها وبحشرجة تعهدها يزف إليها رتابة صوت تألفهُ، زقزقة عصفورة تُركت وحيدة على السروة التي تحاذي نافذتها الموصدة، تغرد مرتجفة تشق الصمت للحظات، تهوى على إيقاع السكون تدق بابه بنقرات خفية تحاول إيقاظها من غفوتها المحمومة، تسامر مسامعها لساعات وتغيب للحظات، تجانح السماء الغائرة، توصل النهار حتى الزوال، فيُحسب من عمرها.
ران صوتها من بين السبات تنادي عصفورتها:

- " سأسميكِ كهرمانة يا عصفورتي، تأتيني زائرة، تغيرين على مضجعي, تداهميني للحظات، تخفين أحلامي داخل أيامي السائرة، كما أخفت كهرمانة الأربعين حرامي في قاع الخوابي، ظانة أنك تصونينني من عمري المغادر. يغلق داخلي ضوء الحياة بينما تجانحينهُ هيفاء، أنتظر صباحا جديداً وأنت ترينه قبلي، كل النور لكِ وأبقى أنا داخل القاع، سماؤكِ شراعكِ وأنا أصارع ظلمة الخوابي ".

يوقظها نباح الكلاب، نباحها يستطيع إذلال ليل كئيب آخر، يمر والظلمة تتأبط صدى السكون، يأتي من خلف الجبال الموحشة. غاب القمر ليلتها وترك حنين الانتظار داخل أكف أوراق الصفصاف المتراصة، تمتليء الأشجار وشوشة على طرفي الطريق، تتبعهُ الخطوات وحتى الهزيع، راحلة، تتخطى الأسوار، ستمر بأناملها على جبينها، تختلس منها المسافات، وتختفي خلف رقعة الإنتظار، تسحقها وزغردة السماء تعج في أعماقها, العمر يمر بها كأنطاكي يغزوها مندفعا يأتيها متكئاً على رمح من رماح عصور الماضي.

هل تستيقظ من نومها وتدع أحلامها جانبا؟ علمت أنها تغافلها! تشعر بذلك أو ربما (حازم) ما زال قريبا. يختطفها إلى الحقيقة، يدوس على أنقاض الوهم، يأتيها من وراء الأسوار فيأخذها إلى الثبات، يرغمها على خلع ثوبها الملائكي، يريدها أنسية من البشر، ينتشلها من بحار أحلامها ويغرقها صراخا، في مركب مبحر بجانب أمواجه العارمه، تُدفن في بركان مائه، أو تطفو على سطح ناره، ضعيفة وعارية. ملائكة البحار يرتلون أناشيد الحب من أجلها وأبناء الأرض يتوسلون هلاكها، إن حدث وغادرتها روحها يصبح طيفها عزاء للبحر، يبكيها فتتضاعف مياههُ وكلما ارتفعت يخشى عليها من غرق أكيد.
أطفال الأرض يلملمون روحها التائهة, ويزرعونها في أقرب شاطئ، يصبح البحر لها، تتلهى داخل أمواجه، تنتظر حبيبا تائها والأرض شعلة من نار. الماء رياحين هوى واليابسة مسافة نوى, إن حصل وغفت الملائكة وهفت تصبح (زينة) وحيدة أمام نافذة السماء و(حازم) يسير على أنقاض الأمس وقبل الأمس والماضي السحيق. يطاردها حيثما ذهبت، يشعر بقربها ويحس أناملها داخل قميصه، ساقاها فوق ساقيه، رائحتها تتغلغل داخل أنفاسه فيتعانق الجسدان.
تعريهِ نظراتها المتسائلة، تخترقهما الصرخات، صرخة تلو الأخرى فتزيد من كبتهما وحرمانهما, وما من أحد يسمع الصراخ سواهما. عروة قميصه المتهدل تكشف جانباً من صدره, يقبض عليها متلبسة تختلس النظر، فكت الأزرار، زرا تلو آخر فانكشفت نظراتهُ المتسلله داخل ثوبها الأبيض، يتمنى سقوطه عنها.
ملأ كاسا تلو الكأس:

- " كأس واحدة لا تكفي ..."
- " إنها الرابعة .. "

- " وكأنكِ تحصين اقتراب الفراق ...".
- " لا بد منهُ ...".
- " إذاً دعيني أفرغ ما بجعبتي ...".

رغبة غريبة تداعب تفكيره، وشهوة حيوانية تستحوذ على مخيلتهِ, توقفت نظراته السكرى على صدرها، يبحث عن حلمتيها النافرتين، ومن تحت ثوبها الناعم تحيطهما دائرتان واسعتان بلون القهوة، لم يستطع الثوب حجب الرؤية عن ناظريهِ وربما خيل إليهِ أنه يرى بروزهما.

-" لا تزمي شفتيكِ فالنشوة تُفوق احتمالي، تثيرانني ونهداكِ يأخذانني إلى عالم مجنون ..." .

وبحركة سريعة يحرر قميصه عن جسده المرتعش وينتظر البقية:

-" إنزعي عنكِ الخجل يا حبيبة القلب والروح ...".

تنزوي الأضواء الخافتة بين ساقيها، عاريتان تخترقان العتمة ... تلوذ وتذوب لذة الذكرى بأشباح الماضي ...

-" دعيني أنزع عنكِ ما تبقى ...".

اضطربت أنفاسها و(حازم) متكيء أرضا يلملم شتات أنفاسه:

-" لا ترتجفي ولا تتحركي ريثما أنجز ما بدأت ..."

-" أخشى عدم تعرفي على نفسي !"

-" ألا تدركين بأني رسام محترف، ستحكمين حال رؤيتكِ لنفسكِ داخلها " .

-" لماذا لا تعلمني الرسم ؟".

-" هيا، اقتربي سأعلمكِ كيف تضربين الريشة بالألوان ".

سكنت الأصباغ السواد وتجمدت الحياة بخصلات ريشة معطوبة، قبعت طويلا داخل كأس ماء. شراب الأحزان يحتل المكان وتأوهات الهجران تملأ الفراغ. أمتزجت ألوان النشوة بالشهوة المؤجلة، تعددت ألوان الدمع، التقت البرودة بالحرارة وانصهر القلبان وازدادا وهناً؟ لِمَ وشى بهما القمر المخادع واختفى؟

أضرمت النيران في جسدين عاريين، أخفت (زينة) عينيها بيديها تحاول ضبط أنفاسها، ارتمت على سجاد الغرفة كغزال شارد عطش، تحن إلى الماء والماء لا يحن لسواها.

* * * *

وافترقا ... جثت على ركبتيها أسفا، تستعرض شريط الماضي، تقسو عليها ذاكرتها وتعود بها إلى الأزقة التي احتفلت بهما. الأحياء الضيقة تحتفظ بطيفهما، هنا مرّا، هنا تناولا فطورهما، في هذا المكان غمسا لقمتهما وفي الطبق عينه علقت بصماتهما، ضحكاتهما التي جلجلت المكان! همسهما وفضول الآخرين! خطواتهما العابثة! رحلة تعقبهما وحتى صمتهما وعيون النادل ... شريط متكرر حافل. لن ينحني لها النهار ولن تسجد لها ليالي الصبر، تداهمها غفلة العمر القصير, لم تدرك كم قبعت عقارب الساعات عند موقف مهجور, وكم مضى من السنين منذ فراقهما.

وكلما اختلت إلى نفسها تراءت لها صور الوصال من بين الضباب، أزمنة وشخص، جدران غافية، بحر وأمواج، فصل شتاء يحاول هزمها، يدعوها إلى متاهة الحلم الذي لم يكتمل. إلى الصحو بعد الثمالة، إلى كأس فارغة. يترك لها سريرا فارغا تتعلق عليه الآثار! آثار رائحة رجل وعطر امرأة.

أنتفض الغروب وهبّت رياح المواسم تعلن بداية فصل خريفي، وربما يأتي بجديد! (زينة) تتحلى برؤية القادمين الجدد، صغارا يتسلقون جدار بيتها، يعتلونه، يلقون نظراتهم الخاطفة ويختفون،

ينفثون روحا جديدة داخل بستانها الهادىء. أرضها مستمرة العطاء والضيوف يتكهنون كيفية الإستيلاء على خيراتها قبل فوات الأوان.
تعيش فراغا نفسيا يفقدها صوابها, هو قدرها المحتم عليها ... الوحدة، أصبحت بدايات الأيام ونهايتها متشابهة، تخيفها رحابة بيتها، لم يتبقَ سوى الماضي، تغوص في ربوعه، تحتفي به مجدداً وتأنس بأطلاله وتكتب لهُ رسالة:

" يفتقدكَ صدري ورياحين الهوى تهوى على وقع صوتكَ الماجن. أسمك محفور على صهوة فؤادي، همسكُ غروري وطغيانك مستبد. جفا النوم عيني، إنكسرت أجنحتي وعانقت روحي مرفأ العزلة. ألم تدركُ أن للحياة مماتا وأن للمات بدا على الذي كان والذي فات. أوقدتَ قلبي وأدخلتني مجرات الحزن والترقب، انفصمت عنكَ وبقيت وحيدة الذكريات، ليكن مهما كان بيننا فأقول من اليوم: إن الذي فات قد مات ".

تنزل بسرعة البرق إلى القبو، حيث توقف الزمن تبحث عن بقايا عمر، تستعجل الخطى ولا تسمع سوى الأصداء، تحاول تهدئتها, ولا تتوقف إلا عند صورتها التي تقبع داخل صندوق يزرعها غبار متراكم .
ستنطلق وتقتفي آثار اللحظات الغاربة، ستلعب الأدوار مجددا، ستحوّل أنقاض الماضي إلى الحاضر، ستجدد الحياة داخل اللوحات، إنها تتقن استعمال الفرشاة، ستعود إلى اللعب في الحلبة نفسها، تعلم أنها لعبة خطرة وشائكة، لكنها مصرة على استدعاء المصائر، رؤيا الحاضر بملامح الماضي، بيديها ستوقف انحدار الأيام. الحب يكمن دواخلها والعشق يمزق صدرها. اعتمدت صورتها بين يديها تغتمدها إلى صدرها ، تلهث حيث صومعة العبث ... الى الماضي ...
ترحل إلى الغربة وكلما داعبتها نسمة حائرة تمسك بذيول الريح لئلا تقع في حريق العزلة، زهدتها الأيام وزهق الطغيان روحها، طغيان الزمان المغادر تتوسل السكينة، تفترسها الأوهام كما تتفرسها الحقيقة، تطلق روحها للعراء فتنتطلق أنفاسها إلى المجهول، تنسل من جسدها لتحظى على مجرد حلم، تدرك الحقيقة المرة ... اللا شئ! فترجع إليها الآلام كالتوائم.

ترفض أن تكون مثل الأملاك المتروكة، كما لا ترضى أن تكون محارة تغادرها لألؤها فتصبح خاوية تفزع منها الكائنات وتشرد من أمامها. عطب السنين يفقدها بهاءها وسبب انزوائها! لن تكمل دورة حياتها وحيدة فالوحدة مزيدٌ من التوهان، فقررت اقتفاء آثار الشتات! ستبدأ من الآن.

تخرج من صندوق كل ما يلزمها في الترحال، أصباغ، قماش، فرشاتها، لوحات بيضاء وحقيبة سفرها، الإنطلاقة الأولى تبدأ من حيث ... لا تدري! من أين تبدأ؟ وكيف تختار وجهتها؟ تختلط عليها الأماكن ويغمرها التردد. شعاع نور يرشدها نحو الأمل, ستقول للأطفال انتظروني هنا، تسلقوا جدار بيتي كما يحلو لكم, اقطفوا ثماري فلقد فقدت منذ زمن قاطفها، بكم بداية الحياة، مشواركم يبتدىء من حيث ترحالي، إن عدت إليكم سأفتح بابه، تمرحون وتجوبون الفناء، سنسهر معا ونركض خلف الضحكات، نطوف مزهوين نوقظ الطيور في أعشاشها، نقفز فوق الزغاريد، نسابق الفراشات! بكم أسترجع طفولتي الضائعة! وإن عدت مهزومة سأبقى قيد الأسيجة أنجز أعواما لا بد منها ...
نامت ليلتها قريرة العين، مبتسمة الأسارير، تحلم بأهازيج الفرح وقرع طبول الحنين. ستبدأ رحلة التدوين، ستحيي الحدث بأماكنه، ستدمج الدموع بأصباغها الحارة وتحولها قطرات من ندى، ستطرق باب السبات تستحضر اللحظات بأحزانها ومسراتها فتتصالح معها.

* * * *

أخيرًا ... وصل ذلك البيت المجهول، قالوا له أنهُ بيتها، قادهُ إليه طفل صغير، إنتقل بنظره إلى الطابق العلوي، النوافذ مغلقة، تغافله أشعة الشمس تعكس نورها إليهِ, فبدا كشراع واقف في وجه الريح. يقاطعه الطفل قائلا :

- " لقد غادرته قبل أيام ".

يقف كصنم وسط الفناء الواسع، يتوق للبكاء، للصراخ، لقتل نفسهِ، سينتحر ويضع حداً لمعاناتهِ, وينهي حياتهُ حالاً وبصوت مرتجف:

- " هل تعلم يا صغيري إلى أين غادرت ؟ ".
- " لم تقل، ربما الجنائني يعلم، سأستدعيه ...".

التقت عيناهُ رجلا مسنا، إقترب إليه بخطواتهِ التعبة، خائر القوى، ضعيف البنية.

-" أبحث عن ...(زينة) يا والدي ، هلا أرشدتني ...؟".

لم يكن لديهِ خيار سوى المغادرة مهزوما، يغادر مستسلما، يتعلق الطفل بيده، يشدها بعنف ويرشده الدخول، يخيل رؤيتها داخلا، إنه يلمح ظلّها، يفد إلى البهو والطفل أمامه وحتى صالة الإستقبال الواسعة، تقابله نوافذ زجاجية عالية تنتصب فتلاصق السقف حتى الأرض غُطيت جميعها بستائر بيضاء تتدلى بشموخ حتى تصل الأرض فتغطيها أيضا، تنتصب عليها عدة طاولات مستديرة اكتست هي أيضا بشراشف بيضاء, تنكسر زهرياتها أمام الصمت ... اللون الأبيض يحتل المكان وتنتشر البرودة في انحائهِ، سحقت خطوات الأحياء وتبعثرت رائحتهم، أنه غير واثق من أنها سكنت ذلك البيت، لا يرى سوى الفراغ، وكعادتها ملأى بالحيوية. لا يلمح سوى السكون وبصخبها العابث يمكن للجدران التشقق، أين ضحكاتها وقهقهاتها؟ عهدها طفلة مرحة وعذراء فاتنة تلهب النظرات حال رؤيتها.

يتقدمه الصبي وبيديه الصغيرتين يدفع باب غرفة ما، إلتقت عيناه لوحة يعهدها، إنها أمامه، رسمها بيده أيقن حينها أنه في المكان الصحيح، إندفع نحوها وكأنه يندفع نحو الشوق الغائر, ينكسر أمامها ويتمنى لو يستطيع تطويقها بيديهِ اللتين خلدتا اللحظة وهدماها أيضا.

لو يلمسها! يتذكر نعومتها ونضارة وجنتيها، يمسحهما بأناملهِ، يفرش راحته على شعرها ويقربها إليه يتحسس كتفيها العاريتين، يزيح بعض الخصلات من عنقها فترتبكُ، يتقلص جسدها وتنز من داخلها أنفاساً دافئة، يلملمها ويقبض على همساتِ حيرى متعثرة :

- أرجوك، لا تدعني أضعف !

يشم شعرها فيتعربش عبيره, يدثر أرنبة أنفه،عيناهُ تضيقان وعيناها ترفان. يزدادان توتراً وبنبرة مبحوحة قال:

- أريدك أن تذوبي بين يديّ، أراكِ ترتجفين... غوصي داخلي .

يحتويها دامية القلب ويجس بيده جسدها من تحت ثوبها ليصل الى أسفل ظهرها، صامتة مستسلمة. تبتعد بأحلامها، تحرقها شفتاه، يمكنه سماع دقات قلبها كما يشعر بإعياء روحه المنهكة، تومىء لهُ بصمت تبغى المزيد. يجذبها نحوه مغمضة العينين، يحسها ذابلة بينما يبعث الروح فيها ويشعلها نارا.

- أحبك يا (زينة)...أحبك...

تطايرت الكلمات وهدأت النفوس، غاصت في سبات نديّ وبصوت بليد يوجه له (حازم) الطفل الكلام:

- ماذا بكَ تقف كالصنم أمام هذه اللوحة؟
- إنها حبيبتي، هل رأيت جميلة مثلها؟
- إذاً أنت (حازم)!؟
- نعم أنا، هل حدثتك عني؟

وذهب بمعية الذكريات مجددا:

- كلميني يا أجمل من رأيت ...

التزمت الصمت، أرادت أن تبوح لهُ بسرّ عذريتها، أن تقول لهُ بأنهُ أول رجل ترتعش أوصالها لهُ، إنهُ رجل أحلامها، لم تؤاتها الشجاعة, إنهالت عليها صفعات الخجل صفعة تلو الأخرى بينما أخذ يقبلها قبلة تلو الأخرى قائلا:

- هل تدركين أن سراّ عظيما يجمعنا؟

يكلمها هو أيضا عن سر نادر، حلم واحد مشترك يربطهما، لو عاشا ترحالا في الأرض، لو افترقا، لو نأت عنهما المسافات فسيبقى حلمهما واحد.

جسدا الحلم بفرشاتهِ، انحنى أمامها بتلقائية كما ينحني لكل إبداع جديد، غذاها بألوان من روحهِ، سمعها، تحسسها وشعرت بأنامله، أوقد وسكب نار عواطفه داخلها، أغرم بها وأسمعها آهاتهِ، لم يبخل عليها، أبعد الأوهام عنها وألبسها الحقيقة، غمرها ولهاً وكحّل عينيها بسهادهِ، أذابتهُ وأذابها، عاشا أجمل لحظاتهما وعندما انتهيا أكتشفا أن للوحة وجها آخر لم يعهداهُ...

-" لمَ تبتعدين؟ اقتربِ لأطبع قبلة على شفتيكِ، سأصورها بريشتي فتظهران مبلولتان"...

- " احرص ستأخذ بمعيتكَ أحمر الشفاه فأبدو شاحبة، ألا يكفينا شحوب النهار؟ "...
- " اذاً بادليني إياها عبر الهواء، هيّا "...
- " أخشى إن زممتهما أبدو مضحكة "...

وعندما لامست شفتاه خدها قالت:

-" لن أقرصهما بعد اليوم لتبدوان ورديتان، لكن ألا تشعر بالجوع ؟"...

-" تتهربين مني اذا، سأطعمكِ من عيوني"...

-" لا أريد عيونك"...

يفاجأ بتعكير مزاجها المفاجيء:

-" وكأن الحزن اللئيم لا يجد سوى عينيكِ ليصب حزنه فيهما"..

-" أحزن لأن فراقنا بات وشيكا"..

استفاق من استرجاع الذكريات بهزة عنيفة في جسده، وصوت الطفل يغلف المكان:

- لا أعلم ما الذي يجري هنا، انك تطيل المكوث أمام لوحتها؟
- لن أشبع منها .

ويغيب في قافلة الأفكار مجددا، يتحسس صورتها كمن يتحسس أسرارها، سرّ دفين يؤرقها، يجللها ويعظم ثقتها بنفسها. يرجع بأفكاره حيث رسالتها، تُودعه بمرارة، ضمها إلى صدره، تصاعد وهبط حنينا، زرعت الشوق في عروقه والبؤس في قلبه، غادر يبحث عنها وأنين أفكاره يحتضر داخل قلبه الواهن. مشى كمجنون يضرب الأرض ويركل التراب بعصبية. يدخل سبات الصحراء المقفرة ليلا، لا بداية ولا نهاية لها.

يأخذ طريق المجهول بين الجموع بثبات. يطوّق رقبتهُ بشريط معقود، عاهد نفسه على تحويل رسالتها الى مزمور، سيلحن كلماتها ويخفف وطأة الحزن منها ويحولها الى مسرة، سيعزف لحنا نادرا، يُرعد ويزلزل الأرض وتهتاج له الأمواج الهادئة، سيطلب المطر وقت الجفاف ويدعو مجيء الربيع طوال أيام السنة. لن يستطيع الإنتظار ولن تهدأ روحه العطشى الى الحب ولن ينسيه الزمن مرارة الفراق.

رسالتها ليست كسائر الرسائل، صرختها هيبة وكلماتها عذبة كالنبيذ المعتق تشاركه نشيد الرحيل وتراتيل التلاقي.

ركب المياه الصافية وبدت الشمس متألقة كصولجان على سطحها، تنسج أشعتها كتعاويذ وتصنع من هيبتها الأساطير، هي علامات سماوية وإشارات سعادة.

سكت الطفل واستدار استدارة سريعة نحو الخلف، أراد المغادرة، استوقفه (حازم) وبصوتهِ المرتجف:

-" إنتظر..."

غادر الطفل مسرعا وأصداء صوته تملأ المكان:

-" خائن ... خائن ... خائن ..."

لحق به (حازم) والصدى يتعقبه، يأخذ السبيل الحجري، نباتات خضراء تتسلقهُ, تمنى لو يعلق بها ويتركهُ، يستبقهُ فيغمره حتى عرائش أشجار العنب بأغصانها الغليظة، يقف عند أشجار مسنة، ربما الصدى يتداعى، يمر تحت ظلالها، تنهمر عليه الأفكار كانهمار قطوف العنب المتدلية، يخترق الطريق حتى البوابة الرئيسة.

يقف أمام سور البيت المرتفع وبنظرة خاطفة يمسح الطريق، لقد استطاع اختراق الصدى ليقف حائرا أمام الماضي والحاضر، الماضي الذي أنتهكت حرمته فقبع داخل بيت صامد يغلفه الصمت, يدشن الحاضر الغائب بأقدامه، روحه وصبرهِ.

إنطلق نحو الريح, أسرع بمغادرة المكان وأطفال الحارة يتعقبونه بحذر، تلتقى عيناه وجوها صامتة، تراقبه بحماس واحتجاج، لم يستطع اكتناه معنى هذه النظرات المفعمة بالتسؤولات، امتلأ المقهى المقابل بالنزلاء الفضوليين يراقبونه محدقين، لأول مرة يحس بالغرق وللتو نجا منه، نجاته سلبتهُ غربة ليقع في أخرى، بل إنها جاهزة لاستضافته مجدداً، تعاد الكرة فتحاصرهُ بقسوتها، سابقا تاه حافي القدمين والآن يتوسط أطفالا يمتطون الترف، إنه في مكان لم يعد فيه التائهُ يطلب الحذاء أو الماء فقط .

بستان حيرة يقض مضجعه، لم تعاوده إغفاءة الموت إلا بعد اعتلائه أسمى الأمواج، هنا تكمن آماله وفي هذا المكان غرزت أحلامه، اراد تحقيقها والإستيطان فيها. إبتسم لحظّ أتاهُ، وسيبكي اللحظات الغافلة التي نقب فيها عن مسراته، جعل صدى الكلمات في أعالي البحار غزل ذكريات وسبائك من ذهب، الصدى هنا يلاحقه بأقسى الكلمات، (خائن ... خائن ... خائن...) لماذا يفقد كاتدرائيته وصدره ملئ بالأمل؟ صنع برجه العاجي بيده ولم يستطع أحد سلبه إياه، إلا كلمة وحيدة (خائن)، إياه وحتى القدر.

يترجل نحو الشاطىء يهجر المكان، يبتعد بخطواته المجنونة والجنون لا يؤدي إلى الجنوح.

تقتنصهُ الحقيقة فيبدو كطير جريح ينزف حتى يفارق الحياة، روحه تفرّ منه وتهيم عليه بفقدان الحبيبة ولمعرفته الحقيقة المرة وهي أنه كما قال ذلك الطفل العاقل (خائن...).

تحتويه الطرقات الغريبة، مدن بعيدة عن الوطن، ينفيه الماضي وتطوف ذاكرته حول معشوقة لم يتبق منها سوى لوحة وحيدة داخل قصر سطحه متين, إن تساقطت عليه قطرات الندى يزيده القمر لمعانا.

سيبدأ من جديد، سيبحث عنها، يشتاق إلى الترحال... أتى من التوهان! تلاحقهُ الدموع وهو يدري بأن الدموع تلتصق به ولا تبرأ منها الأجساد أبداً، تصاحبها حتى الهلاك. يشتاق لحبيبة كما يشتاق الفحم الى النيران، ذكراها تومضهُ، تؤججهُ فتستحوذ على آخرتهِ فيصبح بين ليلة وضحاها رماد جمر.

* * * *

جاء من الندم ... وهنا بداية الرحلة. رحلة الندم بعد نكثه بالعهد. تبتلعه الظلمة ، فاقدَ عنوان الأمل وتسكنه مقالب الدنيا باحتها، أعباؤه كالروابي الحزينة، سماؤه مغلقة. يصل طرف المدينة متمردا، سيهجر المتاعب وسيبتعد ثائرا، لن يبطئ ولن يسمح لخطواته التحول عن نشدان الهدف, سيتخذ طريق البحر سبيلا، سيقطعه إلى عصر آخر. سريع الخُطى يبيع روحه للمجهول, لن

تقوى الأرض على منعه وحؤوله عن الإبحار، يتقدم نازحا فتبدو مشيته كرقصة نعامة. سيصل إلى (زينة) لو كان ثمرة وصوله الموت غرقاً.

مكان اللقاء ... سحب سوداء على طول شاطئ اخرس مجنون هائج، كاد يمزق أحلام المرتحلين، لم يكن وحيداً فهناك عشرات المشاركين، يستسلمون لمزاجيته يأملون خيراً، تداعبهم صورة الحياة فيما وراء البحار ...
سيصلون بواسطة عبّارة كي يحظوا بما فاتهم، يتوقون لمستقبل زاهر.
سيرحل حيث حبيبتهُ، سوف يأخذها بين يديه إلى حيث الأشواق المؤجلة، يستأنسان بالقمر ويمضيان معا نحو أبواب السعادة.
تتلاقى العيون وتتجمع السيقان في بقعة ما، يرسمون نيّاتهم على أرض رملية مبللة بدموع فصل متقلب المزاج. يأتون بجموعهم وكأنهم يصلون نهاية سباق شاق.
وقف (حازم) حائراً يتوسط الآخرين، يتحول السكون إلى أصداء ويستفيق الصمت باقتراب أطياف آدمية تهز العزلة, وبعيونها البلهاء تتساءل عن موعد المغادرة.
لم تصل العبارة التي ستقلهم الى وطن آخر، موطن يرتزقون من خيراته، ربما فيه يودّعون الفقر والعوز، وربما أيضا يمنحهم أمل العيش الهانئ . جميعهم ينتظرون ساعة المغادرة والأمواج ما زالت تضرب الشاطئ بذيولها، تغرقهُ مهتاجة وتغرق معها أيضا صبر المرتحلين وابتساماتهم.

يحلّ المساء، ترتعد الأجساد خوفا وقلقا، يراقبون البحر منتظرين العبّارة التي ستنقلهم، تأخرت ولم يعتلِ الأفق إلا أمواج سرعان ما تحولت إلى ظلام، ومن وسط الظلمة تسلل همس المتذمرين, إعتلى الهمس فصار صوتا يصارع ضجيج البحر، ثم تحوّل الصوت إلى صراخ.

- لقد عبث بنا عراب المركب!

تخلف العرّاب عن المجيء وتأخر موعد الرحيل!

- لقد جنى علينا العراب، أخذ نقودنا وهرب بها وها نحن ننتظر الهلاك، لقد قضي علينا، بدل ركوب البحر سنركب الطريق إلى السجن الأكيد ...

هزّهُ الحزن وتكبدهُ القلق، الغضب العارم لن يكمن داخله كما في السابق، من الضروري أخراجه من قلبه، لن يقوى على الإحتمال, فما يحتمله يفوق التصور وقدرة الإحتمال لها حدود، سينفجر ... لا يوجد وجهة ينفجر بها ولا عنصرا يصب جام غضبه عليه، السرور يفارقه والغبطة تبقى قيد اللا معرّف، ما الذي يحدث الآن؟ إنه يبني الآمال، ماذا سيحل به؟ ماذا يفعل بأحلامه، لقد فقد قدرة الحلم، الحلم هو الحلم والوجهة هي الوجهة, والمصير هو المصير, والبحر هو البحر, والعرّاب لا يظهر, والعبّارة تختفي, والليل يرخي سدوله, والقمر يملّ من الإنتظار, فيغيب من صحن السماء، ولا يبقى سوى النجوم وهدير الأمواج، الشاطيء المزمجر والرمل المُبلل، العيون الجاحظة والأجساد الواهنة.
الليل بطوله لن يدعه يأمل حلول نهار جديد, ما دام قد تأخر المسير، الأشخاص بتعدادهم ينتظرونها, والجموع تأكلها الحيرة. النساء يحاولن تهدئة أرواح الرجال الهائجة، لا يستطيعون كبح جماح أنفسهم، إنهم مقيدون يبلعون صراخهم داخل بطونهم، إن صرخوا سيفشى سرهم وربما سيُلاحقون. يستديرون في حلقة مفرغة، يتهمون أنفسهم، الغير والقدر. كم هي قاسية الأقدار, وكم هو جارح الحظ, وكم هو مميت الإنتظار.

- لماذا تلاعبنا يا قدر أفلا تتقن اللعب إلا في الأنفس المتعبة؟ أرهقتنا الحياة بجلّ مصائبها وأزهقت أرواحنا، ماذا تبغي من أناس ولدوا، كبروا وعاشوا في الأرض محرومين مظلومين، لماذا تدفن آمالنا ونحن الضعفاء!؟

لم يحمل (حازم) معه سوى أفكار النزوح، لم يأتِ على صهوة جواد، ولم يلقاهُ أحدُ سوى البحر والمنتظرين، جيوبه فارغة ولا يملك سوى قميص وبنطال يغطيان عورته, أما حذاؤه فهو ملكه وبهِ سيبقى حتى الوصول، علقت بهِ أجنحة الذكريات وغبار المسافات.
توقف حيث احتشد الآخرون، بهذا التجمع يكونون قد أحرزوا نصر الوصول، اصطخبت الأمواج وهلعت المياه برؤيتهم . تُعلق النساء في أعناقهن تعاويذ, ويربط الشباب تعاويذهم في سواعدهم، خيوطا خضراء باهتة، وآخرون يأخذون معهم زجاجات امتلأت بتراب بلادهم. هناك من نسي اشياءه أو تناساها متعمدا فأتى خاوي اليدين والذهن، ومن تأبط بطانية صوف تحميه من برد البحر، ومن حاول إخفاء تردده ورعبه، ومن ربط بضعة أرغفة بقطعة قماش أبيض، ومن انهمرت دموعه لوعة، كان من بينهم المبتسم بوجهه البشوش يكبت قلقهُ وينتظر صامتا، ومن احتفل بالنزوج واكتفى بإشعال سيجارة من علبة سجائر انتزعت من دستة علب، ذخيرة يفضلها على كسرة الخبز. وكان من أخفى زجاجة كحول تحت ثيابه. وأكثرهم من مطالبي العمل والعيش الكريم. المركب مهيأ لعدد معين، والعدد ليس بقليل ولكل واحد مساحة بقدر جسده، جلوسا على السّطح ومسافة العبور تتعدى ليلتين ونصف نهار.
كل واحد يخطط لمستقبله، يرسمون أحلاما يتوقون الى تحقيقها، مغايرة، يهيئون أنفسهم لاستقبال عالم جديد .
سيغادرون يابسة كانت مستودع حزن ويلجأون الى مياة... بعدها يابسة أخرى تروي ظمأهم، تقيهم من شظف العيش والقيود، سيحاولون النهوض بطموحاتهم حيث تتحقق، سيغادرون القلق ويتناسون الكرب ويحوّلونه إلى سعادة. خطط كثيرة يودّعون فيها اغتمام العيون وانقباض القلوب ... سيتوجهون إلى حياة أفضل!

يستمر صمت الإنتظار، يتيه فيلقى بهم أعلى الدوامات، تمنوا لو جلسوا في السماء أو على حافة نجمة كي يكتشفوا سبب تأخر العبّارة. زاغت العيون من شدة التحديق وذابت في فضاء واسع.

تنتهي النظرات حيث تبتدئ، والدموع تتراقص خلسة في الظلام. إشتد البرد وتنازعت الأيدي على فتح سرر الملابس تُخرج ما بداخلها تغطي أجسادًا ترتعد بردا وخوفا .
بحث المرتحلون عن مكان على شاطئ عار يتكورون فيه يقيهم من البرد .
قلق بعضهم من الرحيل فقرروا الرجوع من حيث أتوا، وكان من ابتعدوا عن نقطة التجمع, يأخذون بقعة أخرى بعيدة يشرفون على الحدث.
ينكصون خلف صخور عارية، يختفون خلفها يراهنون على خدعة ما حصلت كانوا هم ضحايا للإبتزاز, يستنبطون النتائج وينتظرون العواقب.
أما (حازم) فتلعق بالشاطئ والمياه تجرف الرمل من تحت قدميهِ، يتحدى الإنتظار, وربما يتحدى العبّارة أيضا إذا تخلفت عن المجئ، سيبحر بجسده وحيدا، لن يتخلف عن موعده، سيعبر البحر لو كانت المسافة أكثر مما يتوقعه. إنه بأمس الحاجة إلى حبيبة أغترب عنها، يخشى من توغل النسيان وينساها! يخشى الحقيقة، حقيقة وجوده مخدوعا على شاطئ الإنتظار! لذلك وجب عليه الإسراع وعدم المماطلة. لن يسمح لأي مخلوق أن يفتري ويجني عليه ويحوّل طريق ترحالهِ الى المكوث في أرض بعيدة عن أرض(زينة). لن يستطيع كتم عشقه داخل قلبه مدى الحياة، لن يدع اليأس يطوّقه ولن يقبع في ظلّ الحالمين، سيصل إليها ويوقف عقارب الساعات التي باغتتهما، يطوقها بذراعيه ويخرجها من خلف جدران لياليها، يطرق أبواب جنتها ويستطعم من شهد شفتيها.
وكم فاجأه وجود شبح آخر يترنح مثله داخل مياه باردة، يقف أمامه منتصبا، يختلس النظر، يحافظ على المسافة بينهما ومن بين عتمة الليل يراقبه ويهمهم بكلمات غير واضحة، يشوشها صخب البحر وغموض الليل.

* * * *

الناي وبصوته العذب يعلن الإنطلاق، لسان حال التحرر والتقدم في مياه هادئة، يؤنس الفضاء ليصل إلى هالة القمر البعيد. العبّارة تتخطى الموجة تلو الموجة, وضوء القمر يقوم باصطياد العيون المستيقظة.
الأنغام المتسربة تدع الذكريات تتسرب الى قلب (حازم). رقصت (زينة) بجلال حافية القدمين، تحتضن وسادة، تتمايل على نغمات منبعثة من مذياع قديم يحتفظ به، تناورهُ فتخرجه من خموله حيث ركن زاوية السرير الحديديّ.
كانت يداهُ مربوطتان بأقسى الممنوع, وقدماه ثابتتان لا تتحركان، تستريحان على شرشف وردي غطى السرير حتى حوافهِ فيصل الأرض متهدلا، سرير مرتب ينتظرالتعري وشرشف أملس يأمل التغضن والقضبان الحديدية تنتصب كشاهدة. نهر من الأفكار قيد الإنتظار, وقدمان بخطواتهما البطيئة تركلان أرضا مستوية، تعصيان المباح، ما تلبث أن تستمرّا داخل حلف السّاعات تتقاسمان سطوة القدر الثائر. يراقبها من قمة رأسها، تدور على أخمص قدميها، تقترب إليه فتحك إحدى راحتي قدميهِ بإبهام قدمها، تبتعد وتطوف تكمل رقصتها، تلف حول نفسها عدة مرات، تنحني أرضا ترمي بوجهها إلى الوسادة بينما يغطيهِ شعرها الطويل ...

ومن دون تردد بدأ يصدح مع الناي، يقص لنفسه والآخرين روعة الوصال بينما بسمة الإنتصار تغمر الوجوه الحالمة، ومسبحة أحدهما تسبح مستمخة بين أصابعه، تقع خرزة وتتدلى أخرى فتتعاقب الخرزات تأخذ ذات الطريق عينها بعد لمسها. وبعد فترة وجيزة ترجع إلى يد فاركها، حركته الهادئة المنتشية سعادة والعبّارة تستمر بالإبحار.

- " ما أجمل الأوقات التي نقضيها مع بعضنا البعض يا حازم! ".
- بكِ أنتِ تكون جميلة ".
- أتوق للغناء، لم أغنِ منذ زمن ...".
- " هيا نغني معا ".

بدأت تغني بصوت منخفض بأغنية طالما فضّلتها عن باقي الأغنيات المألوفة، بدا كل شيء مشعاً وسعيدا، راح يشاركها النغمات فيعلو صوتهما من بين الجدران المغلقة، يطردان عنهما وساوس العالم الخارجي، يثبتان للعالم بأهمية وجودهما، إنهما سارقا السعادة وطاردا الوحدة، بهما يسكن الصخب فيتبدل أنغاما هادئة جالبة سلاما للنفوس، يتمردان على النظام ويأتيان بفوضى الحب ولذته.

- " تتقنين مشاركتي رعشة الحنين، بسمة من ثغرك تغرقني، أرشف من كأس دلالكِ، ملوّع، أسهر للثمة حُبّ بينما تسهرّين النجوم قهرا، تتغنى فيكِ وأنتِ تتهادين، تراقصين القمر بعينيكِ وتصوّبين الكواكب نحوكِ، بيديكِ تهزين الكون وبقدميكِ المستحيل ..."

صوت أحدهم يوقظه من أحلامه:

- لماذا توقفت عن الغناء؟ هل لي معرفة اسمك؟
- أنا رجل أحمل الأحلام في صدري, وأنوي تعليق اليقين على رأسي.
- وهل اليقين يعلق؟
- نعم كي يبدو تاجا فيراهُ الجميع، سألملم جميع آلامي وأخرجها من بين الآهات، سأغير الماضي بألوان المستقبل الزاهية, ومن تكون أنتَ؟
- أنا من الراحلين مثلكَ، سأغيب عن اليقين لأحيا في الأحلام.
- إياك وأن تفعل, فهذا كان سبيلي!
- وتذهب الآن إلى اليقين؟
- نعم وأنا بعجلة من أمري.
- لكن الأحلام أكثر وفاء وطمأنينة!

- أرجوك اتركني وشأني، يا لمفارقات الحياة، أنا، أصبو إلى الحقيقة، هارب من الأحلام, وأنتَ تهرب من الحقيقة كي تغرق في الأحلام ونتخذ ذات السبيل، نبدأ مشوارين معاكسين بينما نشق طريقا واحدة، ألا تعتقد أن المفارقة مجنونة؟
- بل أعتقد أننا نهرب إلى الغيبية ولكل منا أسلوبه.

أجابه (حازم) محتداً:
- لستُ هاربا إلى الغيبية, بل أهرب إلى ...
- لمَ تتوقف عن الكلام، إلى ماذا تهرب؟
- إنني لستُ من الهاربين يا حالم!
- لمَ توقفتَ عن الكلام إذا؟
- أنا لم أتوقف، هي الأفكار التي تأخذني إليها؟
- اذاً فنحن شريكان.
- بماذا نتشارك؟
- بالمصير.

يحتد (حازم) مجددا:
- يا إلهي حتى المصير لا يريدني إلا بشريك، لا أعتقد أنكَ ستشاركني في شيء.
- ولمَ تبقى وحيدا؟
- لستُ وحيدا بل من الآن فصاعدا سنكون إثنين.
- ومن هو الثاني، أخشى أنها إمرأة!

إحتد (حازم) مجددا:
- ومن أنتَ كي تملي عليّ ما أكون وكيف سأكون، من تكون؟ أعتقد أني أعرفك!

الضباب يحجب الرؤية عنهما، يدخلانهُ حتى أعماقه، لم يتبقَ سوى أجراس الصمت، البحر والذكريات. انزوت العبارة في أركانهِ تبحر داخل انحناءاته، تعتلي أمواجا هادئة .

وعاد الى الذكريات...
أراد حجب شعرها عن وجهها بينما تتخذ تلك الوسادة ملجأ تجمّع أشواقها عليها، أتت تحمل الحبور إلى غرفته، وها هي تجلب لهُ الآن ضوء عينيها المخبأ بخصلات شعرها المعطر. تتنفس ببطء بينما يتنفس هو بسرعة وبدفعة واحدة، حتى ليخيل لهُ بأنه يوقع بعضا منه أرضا بينما يقترب إليها، وبأنامله المرتعدة يحجب شعرها عن وجهها، يقترب منه فتثور قطرات العرق السّاقط على جسدها كتساقط قطرات الندى على أوراق الشجر.

يستمرون في طريق الضباب, يلف الليل القمة السوداء فتغرقهم بريشها الأسود, تخترقهُ بعض هالات النجوم البعيدة، انتشر الضباب ليصل الرؤوس. بحثت العيون عن نفسها! ضاعت النظرات في السؤال!

رمى (حازم) بجسده اليها، وبأنامله يتحسس لمسة تلو اللمسة وبأناملهِ أيضا يوقع ميثاق الوصال ...
المذياع يستمر بارسال أصدائه، الأصوات تموج عبر جهاز معطوب فتتغير الأنغام الهادئة لتحتل مكانها أنغامٌ وأحاديث تصخب تارة وتهدأ تارة فيبدوان كطفلين وديعين عابثين, وعندما يتوقف الإرسال، يصمت المذياع معلنا توقف لهاثهما.

* * * *

بينما تنطوي الشمس على نفسها وهي ترتدي حجابها الأسود تاركة الوجود. غافلتهم ورحلت فبدا الكون هزيلا نافثا دكونته بحماس. في هذا اليوم بالذات بدأت العبّارة تتخذ مسيرتها نحو الطريق المشيد بنعومة المياه، تذرع الأمواج بخطى مستعجلة حاملة المئات على ظهرها.
الطريق بعيد والسرعة واجبة من أجل الوصول وهناك العديد من السفرات بالأنتظار. كل مدة يعج الشاطيء بالمرتحلين. يتم الإتفاق مسبقا، تجهّز المجموعة بالنقود ويدرك الجميع الوجهة أيضا. يتركون موطنهم وعائلاتهم من أجل لقمة العيش، يحاولون تحدّي الجوع ... يصارعون البقاء.

الترحال عزاؤهم، والبحر يملي عليهم شروطه، إن بلغوا موعدهم بسلام أو تأخروا عنهُ فهذا منوط به، إن استفاق من غفلته محموما يلقي بحممهِ عليهم وإن استيقظ سعيدا فيكونون محظوظين.
منهم من قام ببيع بيته وجميع ما يملك، ومنهم من اقترض لذلك، وفيهم من عاش مقننا ريثما يجهز المبلغ، ومن تسابق مع الريح بأحلامه من أجل الرحيل ... جميعهم على اختلاف عقائدهم يغادرون بسبب ظروف قاهرة ...

تتردد الشمس في البزوغ إنها تغوص في سبات عميق، ربما يعز عليها مغادرة موطنها! نارها الخامدة دليل الإنفراد بنفسها فتغفل عن التزاماتها، ربما نجوم الليل تعدها بمملكة جديدة فتنام داخل حضنها آمنة، تغفو داخل قصر شاهق، تتخذ سرير العشق ملجأً ووسادة الهيام وطناً كما اتخذه بطلانا (حازم) و (زينة) اللذان أمضيا الليل بطوله في همهمة التردد، شفاهما تقترب وتتأخر حتى يستعر القلبان بشباك الهوى، يصله صدى صوتها:

- " نم على الوسادة وسأتخذ صدركَ وسادة لي ... أخشى التعود على دفئكَ وظروف الترحال تلاحقنا، الفراق قريب أقرب مما يتصوره العقل ...".
- " أتحفيني بعطرك، رائحتك كالفستق، دعيني أعبث بشعرك كما يحلو لي، أفرج عن وجهك، سأشتاق إلى مائكِ، تملأيني دفئا، ارفعيني إلى عرشكِ، لي من الجواري تحنيني، أنا الطامح الآن لكل الخلق وأنا الفاتح لكل من يريد أن يُضنيني فأنتِ ملهاة روحي ويقين أحلامي، غزوتني بمغزل الحياة، أومأتِ إليَ فنهضتُ من صيرورتي، أخرجتني من وكر عزلتي، ألهثُ خلف خماركِ أناشدكِ بأن، تدفني عنقي، أشنقيني بمنديلكِ فيباح دمي، أطعمتني فاستطعمتُ بلذتكِ، توقف لهاثي بإيقاذكِ لفؤادي، أصبحت حياتي غالية عليّ فأصريتُ الإبقاء عليها من أجلكِ ..."

وقبل أن تكتمل الكلمات تكون قد استطاعت التخلص منهُ، تختفي بروية، كعفريتة دون إحداث الأصداء، تترك الغرفة تماما كما تخترق العبّارة سطح الأمواج الهادئة، تختفي وكأنها لم تكن أبدا، تعبر إلى ضباب آخر وآخر فتصل ضباب السنين الغابرة ...

تتخلى الشمس عن عهدها! تتمرد في الظهور والعبّارة تتأخر في المسير، تتيه داخل الظلام، طال الليل وصمت الراحلين، إنهم يتحلون بالصبر, والصبر لا يضيق ذرعا بهم.

أخذت النسوة على عاتقها إشغال ذهن الرجال عن التفكير في إعداد وجبة طعام مشتركة, يفتحون سرر الأرغفة، يكسرون الخبز، يغمسونة بماء الزيتون المُخلل، يستعذبون طعم الليمون ويستلذون بنكهة ماء الملح، وليمة جماعية زهيدة.
ارتفع حاجب إحداهن دهشة بينما تتذوق الطعام:

- لمن يعود وعاء الزيتون هذا؟

ظهرمن بين الرؤوس شاب في مقتبل العمر:

- لي يا أختاه، ماذا بهِ ؟
- من أين أتيتَ ؟
- جئتُ من وطن جريح! جرّد من زيتونه ولطّخ زعترهُ بالدماء!
- كيف تركتَ النهار في جواركم؟ أما زالت النوارس تأكل منهُ فيتحول؟ إلى ليل طويل؟ هل انقلبت السحجات (صفقات الفرح) والأهازيج إلى صراخ وعويل؟ كيف هي أشجار الجميز، هل ما زالت تساوم العنب والتين في لذتها؟ أخبرني من أي عصر أتيتَ، فالترحال حالي، منذ نعومة اظفاري وأنا راحلة ... دخلتُ بلادا وخرجت أخرى ولم أحظَ حتى على تذكرة سفر، جلتُ عالما لم يعترف بي وتركت عوالم تحظّر عليّ المكوث فيها، أطرقُ الآن أبواب الميحط ربما يكون لي فيهِ نصيب! وأنتَ؟
- جئت من عصر الترحال الجديد، أرى بصمات والدتي على حبات الزيتون، أحاول شمّ رائحتها، أذكر أخوتي وأيديهم عندما هززنا الأشجار في موسم القطاف، نوقع الثمار على حصيرة طرحها والدي أرضا بينما اتخذت والدتي ركنها الدائم تحت ظلال الشجرة المقابلة تعرّب الأوراق من الحبات قبل تعبئتها.
- اذًا فأنت حديثٌ على القدر.
- بل تمنيتُ أن أكون من السابقين فربما يهون عليّ العذاب!
- للعذاب لذتهُ أيضا يا بني! كما الجوع تماما، عندما يفوت موعد الطعام وجوبا علينا أن نشعر بأهمية إبقاء معداتنا خاوية لئلا يأتينا الجوع بعد شبع فنتجرد من عادة الجوع ومن قدرتنا على التحمل ايضاً.
- وكيف سنبقى على قيد الحياة؟
- نمنح أنفسنا بعض اللقم، كمٌ قليلٌ لئلا نشبع، أحذركَ من الشبع يا بني، فحينها ستنسى الجوع والقهر وتنسى حتى أقرب الناس اليكَ، خذ هذه اللقمة فبها تبقى حيا وبها تتعلم ممارسة قسوة القدر, إن مارست القسوة وتعايشتها فلن تكون الهزيمة حليفتك.
- أخشى أن تكون الذكرى حليفتي!
- لا تخشها فبها تستمر الحياة، من دون ذكرى نكون كالأيتام.
- أراك وحيدة، فأين هم أبناؤكِ؟
- أبنائي لا طاقة لديهم على الترحال، جئت لوحدي، فلكل واحد منهم أسرتهُ، بقيت وحيدة بعد وفاة والدهم فوجب عليّ إعالة نفسي بنفسي .
- إنكِ تضحين من أجل لقمة العيش!
- أنا كما كل الأمهات، التضحية من شيمنا وعزاؤنا رؤية فلذات أكبادنا مسرورين ومرتاحين.

تحركت الأفواه ببطء الترقب والأيدي تغمس في الصحن عينه، انقسمت اللقمة على الجميع فبدوا كعائلة واحدة متوحدة ينتظرون عودة ضوء النهار، لعل الشمس تعود من غربتها كي يبدأوا نهارا جديدا يأتي بعدهُ ليل أخير ... ليل الخلاص.

ابتهلت الأسارير واتقدت الوجوه برؤية الشمس تعكس نورها من بين السحب فتزيدهم تفاؤلا وسرورا, الزرقة تعود إلى السماء وتستمر العبّارة في طريقها.

* * * *

تغوص (زينة) بالذكريات بينما تدوّن الفرشاة بيدها الأعماق الدفينة وحتى أدق التفاصيل, تُغازل، تمتدح، تُقرّب، تُلهب، تَصرخ وتبكي وإن أرخى النهار سدولهِ تنعسُ عيناها، تغفو في حضن لوحتها. يُملي الليل عليها مروءته بحنان، يهدهُ أنفاسها، يُلاطف عنقها ويستسيغ

ملامستها، تستسلم لهُ ... وإن استيقظت ولم تنجز ما بدأتهُ تهيم قلقة، تدور حول نفسها كتائهة حتى تعود إلى لوحة بدأتها تستمر. في عملها حتى يستنفذ منها الصبر.
تريد تدوين أماكن تفصلها المسافات والذكريات رهن الاعتقال، تراوغها الأحلام وتُمطرها أسئلة, تسأل نفسها بصوت رماهُ الصدى الى الآمال المبعثرة:

- لماذا كل هذا يا (زينة)؟
- لا أدري، ربما أشعر باقتراب النهاية ...

تصمت برهة ثمّ تسترسل:

- أكثر ما يهمني هو وصول الرسالة إلى العنوان المنشود ...
- عن أي رسالة تتحدثين؟
- أتحدث عن الرسالة التي تدحرجت مع الرياح، في طريق مفتوح، حيث السبل المشروعة، رسالة تنتظر فاتحها, وفاتحها يجول العالم من غيرها!
- متى أصبحتِ من ذوي الرسائل؟
- عندما احتضر الصباح يتلصصهُ السواد.. والغيوم المذهولة تملأ الأجواء، والسبب هو الفراق.
- وهل أدهشت رسالتكِ العنوان؟
- لا أعتقد، لو أدهشت العنوان لطّرق باب داري، وربما بالفعل وصلت العنوان ومستلمها تجاهل أمرها وأمري!
- أينَ هي إذا؟
- ربما حطّت في إحدى زوايا السلم المعتمة.
- ألم تخشي أن ترتادها الخطوات فتسحقها؟
- نعم! خطوات كثيرة زارت المكان، لكنها استقرت حيثُ هي، تحوم بين خطوة وأخرى، وكأن الحياة انتهت بانتهاء ذلك الحب العاصف!
- إن حصلَ أن تعثرت إحدى الرقصات وداستها؟
- تحبس انفاسها، تلتزم الصمت وتتحملُ صابرة.
- وماذا بالرسالة؟
- بها الأحلام المؤجلة، تُساوم على طول العمر وقصره.

سنوات تليها سنوات، تُهدر، تُسرق، تنتشر حروفها في الفضاء، تتطاير بلا أجنحة، تؤجلها أو ربما تُسرع بها الى ... الفناء . إن جاءتها قطرات المياه تُبللها ولا تُحييها، بل يسيل منها المداد رقراقا، تهوى فتذعر الأرض بسوادها فتأسف على نحيبها ... هيهات أن يسمع أحدهم الأصداء!

- ويحكِ يا زينة، لمَ تبدين كالمهزومين, أو المفقودين؟
- حديثي يخرج من الأعماق يعود ويستقر في الأعماق.
- وماذا حصل برسالتك؟
- تبقى حتى تغمرها الأشعة من بين الشقوق.
- إذا هناكَ صباح يأتي ...
- نعم، تتداول الصباحات فيما بينها، تتناولها بنورها الذهبي، تقوى المعاني وتُصهر الألفاظ مجددا، كلما استقت من حرارة الشمس، تعود النقاشات فتحتد، تجف الصفحات ويدوسها كل خطّاء.
- أي صفحة منهم؟
- نقشتُ كل صفحة بمآقي الحزن والشجون فتخدرت داخلها الجراح.
- ويحكِ لمَ كل ذلكَ؟
- لقد أصبحت مُلكا متروكا شاهدا على الحدث، تعود فتستوطن زاوية في أسفل السلم، تتيهُ في ثناياه، تخشى من يد غادرة تأتي وتسرق منها الأحلام.

- كم تُعانين يا (زينة)؟
- لقد مشيتُ طريقا يعاكس تجاه السعادة، أنتزعت مني عنوة، هلكت الآمال، اعتصر المعنى، ثُقبت الرسالة وفقدت معانيها.
- لمَ لا تحاولين مجددا؟
- حاولتُ حتى تضاءلت البدايات واصبحت كما العديد أمثالها ... رسائل لن تُقرأ ... دورة عمري تشتاق إلى بسمة بها تغذية الروح.
- ويحكِ لا تدعي أحدا يرثيك.
- لا ، لن أهزم أبدا ...
- ألهذا تفكرين بالرحيل؟

وتصمت، وصوت الضمير، يستفزها متسائلا ً:
- لماذ لا تجيبين؟ هل أصبحتِ أمرأة الآحلام تتوقين المغادرة إلى اليقين!

سكنت داخل سريرها، مأواها الوحيد الذي تبّقى لها، تغفو داخل طيات المنى، وحده الأسر، بياض السرير ودفؤه يمنحها الراحة واستمرار الآمال، تحلّق في سماء ساحرة تأخذها الأحلام إلى البحر ومقيدها هناك، معلقة بالهواء، تترنح إلى الأعلى ثم تنخفض الى الأسفل، عدة مرات، خشيت من الغرق، ماذا لو أفلت الحبل وسقطت داخل البحر الهائج؟ تأخذها الأحلام إلى مكان آخر تلتصق بأرض جرداء، أرض تجري في جوفها مياه نقية والعطش يتصيدها، المياه على بعد أمتار لا تدنو منه لأن الخجل يقيم في دواخلها, تقاوم الظمأ وتقترب منها المياه بلا خجل، تزيدها وجلا وتزيد نبضات الفؤاد خفقانا ومن بين ضلوعها، يأتيها بطش أحدهما فيحطمها، تنزف الدماء من صدرها فتأتي على جسدها بأكمله.

* * * *

دقات متتالية تطرق بابها، توقظها من حلم مزعج، تتابع دون توقف و(زينة) تحاول نفض آثار الحلم عنها، أصيبت بدوار منعها من التركيز وخيل لها بأنها تفقد الذاكرة لوهلة, صوت ناعم يناديها، يخرجها من عزلتها وبقبضته الصغيرة، يتابع حتى اقتنعت أنها بالفعل تعي أصواتا حقيقية.
- لقد لمحتُ الشمعة مضاءة من النافذة فأسرعت اليكِ كي أخبركِ.

كيف تسنى لهذا الطفل الدخول إلى بيتها! أي طموح دفين دعاهُ يدخل بيتها المحاط بسوره العالي؟ تسلقهُ متسللا ًمن أجل إشباع رغبة، كبرت خطوات الصغير عندما استطاعت اختراق التردد وعيون الجيران المحيطين بهذا البيت الهاديء، أصابهُ الفضول كما أصيب غيره بالماضي، لكن غيره لم يجروء على تكرار الزيارة فهل يجروء هذا الصّغير البقاء؟
يتابع كلامه وعيناه الحائرتان تأخذانه إلى حيث صُفّت اللوحات:
- هل أنتِ مغادرة يا (زينة)؟
- هل تعلم ما هو أيضا؟
- نعم جميع أطفال وشباب الحارة يتغنون بهِ وبكِ!
- بي! أنا! ولمَ! هل يعرفونني؟
- نعم ننتظركِ كلما خرجت من حصنكِ، ما كل هذه اللوحات, هل أنتِ راحلة؟
- نعم سأرحل لفترة ما وأعود، سأدعها في المخزن ...
- لماذا؟ إنها جميلة جدا، يقولون بأن الرسّامين يتوقون إلى الوحدة، إنكِ بالفعل فنانة فرسمك جميل، هل تقضين معظم وقتكِ في رسم هذه اللوحات الجميلة؟ ألا ترسمينني!

- أرسمكَ! لمَ لا! ربما في حال عودتي.
- ومتى تعودين؟
- لا أدري، في حال إنتهائي لمهمتي، سأبقي الموعد قيد الظروف.
- هل تستلمين عملا في مكان آخر؟
- نعم، ربما ... نعم إنه عمل في أماكن خاصة. لم تقل لي ما هو اسمك يا طفلي العزيز.
- اسمي (حازم) .
- (حازم)؟ اسمك (حازم) ؟
- نعم وماذا في ذلك؟ ألا تحبينهُ؟
- بل العكس انني أحب هذا الاسم كثيرا، نعم أحبه كثيرا جدا.
- هل أحزنتكِ يا (زينة)؟
- تناديني (زينة) بدون مقدمات.
- هل تريدين أن أقول لكِ ماما (زينة) ...؟

لاحقها الطفل بنظراتهِ، راقبها حتى ملهُ الترقب، رجاؤه الوحيد نظرة خاطفة داخل بيت بابهُ موصد جعلهُ ينغمس بشعور خفي متناقض، التردد في المغادرة مقابل حبّهِ للبقاء، الخوف مقابل حب الاستطلاع، انتهاك عزلة الآخرين مقابل الفضول، السّكون أمام وابل من الأسئلة المؤجلة، اكتشاف باقي أركانهِ مقابل خشية حفيظتها، الرجوع من حيث أتى؟ هل يغادر من النافذة أم من الباب الرئيس؟ ماذا يقول قبل أن يغادرها، أم يُبقى السكون فاصل الزيارة بينهما، لكنهُ طفل وتراودهُ العديد من الاستفهامات ولا يستطيع السكوت, وكذلك لا يستطيع المكوث بينما تستغرق صاحبتهُ في أفكارها! عرف الصغير انهُ واجب عليه الانصراف كي يتركها مع نفسها.

غادر الصبي، وعادت زينة لتعيش الحلم الهارب، تذهب حيث الحنين، آهاتها تتمرد عليها مجددا، آهات مسكونة فيها، دقات قلبها المستترة تنتطلق من جديد، تتراءى لها الذكريات من خلف الأعوام، شاحبة معاتبة، تخضع لها مجددا تعاتبها والصدى يملأ حجرات بيتها الفارغة. انتفضت لعلها تنفض عنها غبار السنين، أتت إليها من صومعة الماضي لتعيد إحياءها.

تغادر والعشق كامن فيها، يمزّق صدرها والأحباء تمزقهم المسافات، تزاول حرفة السّعي خلف المصير، ستقيم داخل الأماكن العاصية، وربما تنحرف عنها فتستكين داخل نواقيس الرغبة المكبوتة، ما أشق ما يدور في رأسها الآن وفي هذه اللحظة بالذات، ستغادر المحطة الأخيرة ستلحق بقطار يعود بها، ترى هل تستطيع معاودة الكرة عبر ريشة مشبعة بأصباغٍ محكمة بالدوائر المغلقة, ويناديها صوت الأمل:

- تعالي يا مهجة الروح نقف معا في العلياء، نقص حكايتنا للأسراب والأعزاء, ألا ترينهم يطوقون الأفق والبحر هادىء، يحملون اسمينا بعظمة وخشوع، ينهالون تقبيلا وتبجيلا؟ يجانحون الهواء على غرّة، يراقصون الأبجدية وبرفرفة ساحرة ينثرون ويتغنون بالحروف الذهبية.
  يلملمها الحمام بهديلهِ ويراقصها بقبضته وبغرور ينثر السلام متلهفاً, تعالي حيثُ سبيل السعادة، نتيهُ فيه، ننشغل عن آفة الكره والغضب، نخترع قيتارة تعزف بأوتارها, تصف اللهفة والأشواق.
  ارحلي يا صديقة الود، سأدعك تأتين اليّ من حيثُ لا تدرين, ستكونين في قبضتي, سأضمك الى صدري ، أبدّد شقاءكِ وأضمد جراحكِ .

* * * *

الجموع الكادحة نزلت البحر بأجسادها الضعيفة, وجدوا نهاية ضالة البؤس على بقعة داخل المحيط، ناموا على سطح العبّارة يتخذون حقائبهم البالية وسادات، يغطون في نوم عميق، يلتمسون بعض الراحة قبل اللجوء إلى الشاطئ خلسة. سيفترقون حال وصولهم، سوف يتسللون من الأعين لذلك هم الآن بحاجة ماسة لكل دقيقة يرتاحون فيها، ربما تمر عليهم أيام طويلة وهم تائهون في أرض غريبة! لم يعلموا أن للترحال أقداماً طويلة، إنهم في مكان الصراع على البقاء، في مكان لا وجود لغير المجهول، نحو الصمت، مسيرة شجاعة يقررها أكثر الناس ضعفا وفقرا، ينأون عن حدود البشرية الجبانة الخائفة من المجهول وتبديل الأماكن. يضعون أعناقهم تحت حد السيف في سبيل لقمة العيش، يذهبون بأرواحهم الى أقاصي المنافي في أرض وعرة! ألا تسمى هذه جرأة تحديد المصير؟

تململ (حازم) وارتجف بردا، العبّارة تسير بأقصى سرعة تتخذ طريقا معاكسا للريح، لطمته الرياح تصرخ في وجه الليل الموحش، توغله البرد حتى العظام، لم ينل منه الإرهاق ولن يأخذ غفوة كما الآخرين، استدار بعينيهِ بين النازحين، وعندما يستيقظون يراهم أجسادا تتراقص داخل حلبة مصارعة، ترتعش الأرض لرؤية أقدامهم الهزيلة المعفرة، يركلون الحلبة بأصرار لا يحفلون بجراحهم النازفة، يغوصون داخل الدماء التي ملأتها غير مكترثين، يستمرون بحفاوة حتى الإنتصار، يتابعون نحو الفوز. لن يرضخوا لأهواء الطغاة فيعيشون تحت وطأة الظلم مدجنين ومغلوبين، تحولت خطواتهم الى ميدان آخر، يحيطون البحر وأقدامهم تبقى على حالها. ماذا لو أبتلت، ماذا لو غرقت السيقان ، ألم تغرق أجسادهم النحيلة في وحل المزارع تحت هبوة شمس حارقة في أراضي الآخرين، ولم يتقاضوا سوى اللطمات على الخدود؟ ألم يشتق بعضهم الى دلو ماء يشربون منه ويغسلون أجسادهم أيام الجفاف؟ ألم ينل الصقيع ببعضهم ولم يجدوا ما يدفئهم داخل أكواخ تعود لأسيادهم, ألم يرفس بعضهم كالحمير؟

أسئلة كثيرة غمرت رأس ذلك الفارس الذي كساهُ المنفى كثوب وقهره الترحال كمعطفٍ، أغتالتهُ وحشة قاتلة وأشواق علقت في دائرة الموتى. بدا كقربان يرتاع برؤية ناحرهِ، قلبهُ يحاذي عمود مشنقة ثائر من طول الإنتظار, ألم تحتوه غرف الأنين وله في جسده من وجع دفين، يرتمي في حضن الغدر يتسرب إليه عبق أرضه التي تحولت إلى يمامة جريحة هربت من قفرها الغزلان؟

للوهلة الأولى يظهر كعاشق هائم، ينزح من أرض اليباب إلى ديمومة العشق, دقات قلبه تتسارع داخل صدره اللاهث، لكن سرعان ما يظهر حائرا مرتبكا، يرثي نفسهُ، أمه ، وطنهُ وحبيبتهُ، يبلل خيوط الشمس السّاطعة دموعا، يمطرها، تفيض فيطفئها، هو خيط واحد من أشعتها يبقى قيد يدهِ، قدرهُ، يذهب بمعيتهِ، يمضي إلى الغيبية، كي يهتك الأحلام، به يسدل ستارة على الماضي وبه يعانق الأمواج وبه يؤرق باقي الأقدار، يستضيء من نوره، سينسل من وشم جبينه، سيركبهُ وقلبه مليء بحب الوطن، لو استطاع لأخذه بمعصمه, يخاطبهُ, يرجوهُ مباركة طريقهُ ويعده بالرجوع مع امرأة تحييه وتزهر جسده الذابل، تصعد الدماء في عروقه الجافة. سيكبر بحبيبة تدفعهُ إلى الأمام، تتوجهُ بقبلاتها فيتوجها بعرش الوطن، سيصبو إلى الزهوة والندرة، فمن تستحق العرش يجب أن تكون نادرة. سيعبر البحر إلى جسر، سيتيه في بلاد تزدحم فيها الجسور, بالجسور يكون الوجود. كلما عبر جسرا عبر حلما، وكلما عبر حلما حوّله إلى يقين.

ودّع (حازم) وطنهُ بكلام مباح جميل:

- الكل يشتهي ليصلي بحضرتكَ يا وطني الحبيب... والجميع يعدو إلى خطفه... وتمتليء جراحا. سلاما على جوامعكَ... على كنائسكَ... سلاما على دم أهلي... على الطفولة... على واجهات الله...هو الذي ومن دون خجل تركك في حوض دمك... فما لي من عذر إذا قلتُ صبرك هو أكبر من الآه.

هذا هو خراب الأعوام...لم يتبقَ مني سوى قميصي معلقا فوق حبل الكلام والأيام تفر من أصابعي تلوّح لبلاد تحلم بالسلام.
يا أنتِ يا مدينتي، يا ألف غبار وغبار، يكفيكِ ورغم جرحك أنكِ سيدة القوام.

وينزح عن مكان قبلته وأساس وجوده، يترك نبضات قلبه معلقة بين الخراب والأحلام. تصاحبه دندنة قيتارة تحترق أوتارها وتغوي أنامل عازف تتراقص على الآهات، تصاعدت النغمات تشاركها الناي الحزين وبشجون تلتحم الأيدي وتتشابك، تتمايل برقة وتتراقص.
بلحظة يتحول إلى شاعر المُجون يداعب حماستهم، يلهب أفئدتهم ويهمس بآذانهم شغف الحنين، وبعينيه اليقظتين يفهم لغة الكلام وسنوات النوى في عيونهم، بملامحه الحادة يعيد للمسلوبين أحلامهم الغاربة، يجمع بين الهدئة والصخب، العاطفة والقوة، البؤس والأمل ونجاح الوصول.
طالبوه بنشيد وطني يجمعهم ويوآزرهم فاستجاب:
- هلموا بقدسية جراحكم إلى الطمأنينة.
هلموا بقلوبكم النقية ننشد للمسرات.
وبقلوبكم الرؤوف نعوّض الله على فراق الأوطان.
هلموا بإصراركم نصبو إلى الجديد.
تضحيتكم وثيقة تبدد المستحيل، تحقق المآرب وما تؤول إليه ضمائرنا.

استطاع (حازم) أن يضيف إلى معنى ترحالهم نشيدا يسكن بهم ويسكنون إليهِ.
اقترح أحدهم تنظيم جيشا يدافع عنهم بشرعية، فما كان منهُ:
- وداعا يا صاحبي للحروب ولتكن زغاريد النسوة إطلاق نيران المحبة، إننا مرتحلون على متن مركب مسالم.
فيجيبه مصرا:
- إذن ما هو رأيك في علم ؟
- لمَ لا تكون راية مصاحبة؟
- موافقون، لتحمل شعارا.
- حسنا أسمعوني اقتراحاتكم.
- إنك شاعرنا فلك الحق بالتسميات.
- لا تنسوا أننا نتشارك المصير.
- إذن، ما رأيكَ بالمرتحلين، المهاجرين؟
- أعارضكم الرأي، إننا غير ذلك تماما، دعونا نُجمع على (الحالمون) لأن لكل واحد منّا حلم هارب يسكنهُ.

* * * *

لم تتقاعس الغربان, وربما كانت نسورا في الظهور! يتسابقون إلى داخل البحر, النعيب يوقظ الراحلين من سباتهم, ويهز مشاعر (فطيمة) التي ما إن لمحت أحدهم يجانح الفضاء حتى أسرعت تخبيء صورة ولديها داخل أسمالها، وبنظراتها القلقة تتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة تستعيذ بالله و(حازم) يقف أمامها صامتا، كان قد لمح طائر الشؤم أيضا وبصوت منخفض تلتجئ إليه قائلة:
- هس ... لا تتكلم أعتقد أن للغربان حاسة سمع قوية، سيسمعنا وسيلحق بنا، ربما يختفي الآن.
لم يختفِ, بل أطال المكوث فيبدو أحيانا وديا ًمسرورا بصحبتهم وأحيانا أخرى يهز جناحية بعصبية ملحوظة.

- رأيتكِ تخبئين الصورة بين أسمالك، لا تخشي يا أختاه من هذا الطير.
- بل أخشى منه كثيرا، إنه شرس وغير ودود وربما لمح أبنائي فيطاردهما.

تمنت (فاطمة) لو تدركه وتخنقه بيديها، ذهبت بها أفكارها لآخر لحظات الخروج من بيتها, آخر شئ فعلته خبو القنديل المعلق على الجدار توهم أطفالها بالنوم, فتخرج من دون أن يراها أحدهما، في قرارة نفسها تمنت لو قام أحدهم بمنعها لكن لم يكن هناك سوى زوجها:
- يجب الإسراع يا (فطيمة) ستفوتك العبّارة .
- ولم لا تذهب أنتَ، ألستَ أنت الرجل ؟

تباطأت بخطواتها، مترددة تتكيء على الجدار الخارجي للبيت، بدت كهرمة فجأة تحني قامتها أمام المجهول، نبضات قلبها السريعة ولهاثها لم يمنعاها من الابتعاد. السكون يلف القرية والجميع نيام, وما أن ابتعدت قليلا حتى سمعت صرير باب دارها يوصد ومن فيه بوجهها، لم ينتظر زوجها إبتعادها، ولم يأبه لرحيلها كل الذي تردد على مسامعها:
- لا تترددي يا فطيمة فرحيلك كفيل باطعامنا، الأطفال يموتون جوعا ...

همّت بفتح حقيبتها، أرادت اشتمام ملابس طفليها، حملت بعضها، هذا البنطال القصير لأحدهما وتلك البلوزة الزرقاء للآخر، لن تنتظر تريد رؤيتهما وضمهما الى قلبها، كما تاقت لرؤيتهما صباحا، الآن يستيقظون، يشربون الشاي، ماذا لو انسكب الشاي الحار وحرق أحدهما، من سيطفئ البابور بعد الإنتهاء منهُ؟ ربما سيقوم بحرق دارها وطفليها, من سيسكب لهما الماء لغسل وجهيهما قبل ذهابهما الى مدرسة القرية؟ ومن سيحضر لهما الطعام عند رجوعهما؟ ولم يتراءَ لها سوى صورة زوجها بكرشه المنتفخ أمامها مبتسما مسرورا.

أي مهارة يتمتع بها ذلك المخلوق، يجانح السماء تارة وما يلبث ان يقفز إلى الماء, يطفو على السطح وبعد لحظات يصعد مهتاجا فتهتاج القلوب معه يطلقون صرخات الخوف الجماعي ؟

تمنى (حازم) لو تطول ذراعاه فتصلان ذلك المسخ، إنهُ يريد القبض عليه بأي شكل من الأشكال، لن يدعهُ يحوم حولهم ولن يسمح له بنعيهم، إنهم ما يزالون أحياء، ماذا ينتظر لهم، الغرق، الموت, هل يريدهم جثثا غارقة؟

يرى قامتهُ تطول، أصبح كمارد عملاق، يخرج من حدود العبّارة يتجه الى الأعلى، قادته الريح إليه يسبح في الفضاء مثله، يغير عليه ويقف أمامهُ بحزم والطائر يرتجف خوفا، ذلك الشبح الذي تلهى بهم يرتجف الآن ويرتعد خوفا، ذلك الكريه الذي هيأ نفسهُ لامتصاص دمائهم وتحضير وليمة لنفسه أصبح في قبضتهِ، تفوح منه رائحة كريهة، دليل ترحال طويل بين الأفق المخنوق برائحة الجثث.

ريشهُ مغطى بألوان رمادية، كان من الصعب تحديد أصل اللون، ربما كانت دماء، يقترب منه بهدوء فيقبض على عنقه، يداه لن ترتجفا ولن تتنازلا عن خنقهِ, إنه يصر على ذلك, سيخلص الجميع من شرّه ولن يدعهُ يأتي إليه بأي شرّ .

حاصره (حازم) بضخامته، وبعد معركة ضارية استطاع إزهاق روحه فنامت الصّاريتان أخيراً فاقدتي الحياة .

تكبدت (فطيمة) عناء الوصول الى محفل اللقاء، استوطنها الجزع وتخبطتها هواجس الرجوع إلى عائلتها، ماذا يحصل لو رجعت؟ هل يحمّلها زوجها الذنوب ويتهمها بأنها سبب فقرهما؟ وإن عادت ماذا تفعل بعينيه اللئيمتين دائما، يلومها على كل شيء، وحتى على ألّلا شيء، هل يطردها من داره بحجة عدم مقدرته إطعامها؟ أم يحضّرها للرحلة التالية، لن يتنازل عن رحيلها، بل سيبقى مصرا على ذلك، سيلاحقها طوال فترة مكوثها في البيت، لن يدعها وشأنها، إنها تعرفه

جيدا، طالما كان الزوج الملحاح الثرثار, لن تتحمل المزيد منهُ فيكفيها، ربما في الترحال ستتبدل الأشياء، ستأتي بالخبز والأوز، ستعود غنية وسيستقبلونها استقبال المحتفين، سيلملمون جراحها وسيزيلون عن وجهها آثار الغربة والعذاب، سيمسح أبناؤها دموعها وسيستبدلونها بالقبل. إنها المرة الأولى التي تترك فيها فلذات كبدها, ولأول مرة تفاجأ ببيع ملابسها وكل ما تملك من أجل ضمان ثمن العبور وحتى مرتبة نومها:

- لن يكون لنا حاجة بمرتبة نومك.

ربما أراد إخبارها أيضا بأنه لا حاجة لوجودها.

* * * *

تغفو (زينة) تعانق رمال الأوهام، بنت لها برجاً، أخذت المزيد من الرمال عن الجانبين، أرهقت نفسها من أجل صموده، أحاطتهُ بذراعيها وبكل قواها عانقتهُ وتركت رأسها داخلهُ، علها تنهل منهُ الأمان!

لم تدرك كم من الوقت غفت، فتحت جفنيها بإعياء تحدق بالفضاء الأزرق وتغرق مرة أخرى بسبات عميق. رحلت بروحها إلى أزقة التائهين، تحمل أثقال نفس مدفونة وتتوارى مع الأموات، رأت عددا هائلا من الأشباح، جميعهم نيام، تفرست وجوههم علها تحظى برؤية أحد تعرفهُ، قام الأشرار من سباتهم يشاركونها المسار داخل الأنفاق المعتمة، لم تعرف أهي بين الأحياء أم أصيبت بعدوى الميتين.

استيقظت من منامها على صوت أجش، أحدهم يرتعد خوفا وينهاها عن الاستمرار ويريد إيقاظها فيهز كيانها بيديهِ العريضتين، نظراتهُ العميقة أشعرتها بالغربة وأرجعت إليها حقيقة وجودها، إنها ما تزال على ذلك الشاطئ والغريب يقف أمامها بشعره الطويل:

- أحمد الله على سلامتك بنيتي لقد خشيت عليكِ كثيرا ...

التقت نظراتها الغافية بذلك الغريب، قبيح الوجه غزير الشعر، خبأ نفسه بمعطف بالٍ في منتصف فصل صيف حارق، يحمل عُرىً فقدت أزرارها. حاول اصطناع ابتسامة رقيقة فلم يستطع، شفتاه الغليظتان حالتا دون ذلك, وربما اختفت الابتسامة داخل شاربيهِ اللذين تسللا ليلتقيا لحيته البيضاء.

ابتعد عنها بعدما وقف مذهولا أمامها ينتظر منها أي كلمة، تلتفت إلى الوراء بين الحين والحين وهو يغادر، وتبدو فجأة كخرساء، لا تنطق. اختفى بسرعة البرق ونظراتها الباهتة تلاحقُ طيفا آخر ظهر من بين الأمواج العالية، أطبقت عينيها وفتحتهما مجددا وكأنها بهذه العملية تحاول أن تستفيق من كابوس يلاحقها. ترجلت مبتعدة عن برجها، تهرول إلى القادم وتدعوه للإقتراب. ذرات الرمل تتنصل من تحت حذائها، تخلعهُ تجوب الشاطئ حافية تقف عند موجة دافئة، تفككت الذرات المبللة فتحدث ثغرتان عميقتان تجرانها داخل الأمواج الصاخبة، ملأت الكون صراخا وامتزج صراخها بهدير البحر المزمجر.

حان غروب شمس تعبت من عصيان التوهج، أصبحت كالجمر في لونها، تذوب رويداً رويدا لتأخذ مأخذ المهزوم داخل المحيط. تعبت أناملها من تحدي نهار طويل فبدأت تقلم أظفارها وتجز ضفائرها تراقب من بعيد (زينة) التي ما تزال غارقة في كابوسها. انكسر هصيص عينيها وتحطمت كبرياؤها، خجلة تتوارى فتواري الأخرى أحزانها، تنطوي على نفسها تتذكر تراكمات الأزمان .

رحل عنها الغريب وهُزم برجها العاجي أمام المياه الثائرة، الجميع يرتحل وتبقى هي قيد مياه كادت تهزمها لولا ظهور ذلك الطيف مجددا، يحاور الأمواج متحديا متخذا زورقا يغتال العباب سابحا في الهواء يواجه الريح بعظمة، ينزلق منهُ الزورق تبعده الأمواج العالية، يسبح اليه وبكل

قواه يعيده ويعاود الركوب متكبرا يناشد الأمواج الهوجاء، مكررا الركوب عشرات المرات وابتسامته العريضة لا تفارقه أبدا.
البحر يغرقه وروحه تنساب بمعية غدره، يختفي وراء أسواره العالية وما يلبث أن يظهر أمام جبروته، يلازم زورقة وينحني أمام كل موجة عابرة غادرة، وإن جاءتهُ أخرى أضخم يرتفع بقامته نحوها يحاول كسرها.
يعيد الكرة مرارا وتكرارا وينهمك بإعداد نفسه وقوته لملحمة أخرى قريبة.
استطاع ذلك الفارس إيقاذ نار الفتنة في قلب (زينة) التي شعرت بالغيرة العمياء تجاه البحر، أحسّت بغدره مرة ثانية ليس بسبب إشرافها على الغرق بل بكونه يحتضن ذلك الغريب ويتركها وكأن البحر خلق لها هي فقط . تمتلكه منذ ولادتها ولم تقبل المغادرة الى بلاد أخرى، بدونه تفقد توازنها وتفقد اتجاهاتها فهو خريطتها، يمنحها القوة كما يمنحها هدوء النفس ويروي نفسها العطشى بمائهِ، أفليست الأرض بحاجة إلى الماء؟

ذلك الشاب يفقدها صوابها، ليس أكيدة من أنها تعرفهُ، ربما يشبه فتى أحلامها، لكن الأمواج العالية والغروب يحولان دون التأكد من ذلك. رمقته فرمقها إنها تدرك تلك النظرة المتحدية، زجرتها موجة أخرى وأخرى لتجد نفسها داخل البحر تبتعد كثيرا عن الشاطئ، اقترب إليها وأخذ بيديها، أحاطها برفق من خاصرتيها، يقربها اليه فيعومان معا يطردان الأمواج بأقدامهما حتى أوصلها سالمة إلى الشاطىء. يمسك يدها بفخر وبيده الأخرى يسحب زورقه متباهيا:

- البحر يحب الشجعان!
- أتعتقد نفسك أشجع مني؟

سحبت يدها من بين يديه وانتفضت، اعتراها الغضب.

- ولمَ تعتقد نفسك أكثر جرأة مني يا أيها الشاب المغرور؟

ابتعدت عنهُ وهاجرت أطلالها غير باكية، تُذهب عنها كابوسا لازمها طوال النهار، صور الحاضر الغني بأحداثه تتحداها، وصور الماضي بتفاصيله تطربها، التقى الزمانان والذكريات تزاحم الواقع، إنها في محطة أصبحت من الأطلال، لولا حاستها السادسة لما استطاعت تمييزها، هنا يتزعم التدوين التقويم، هل ستستطيع الفرشاة التدوين؟ كيف ستبللها بالأطلال! ألم تبرد سخونتها! الخطوات فاترة وصعبة والغليان أصبح مريبا، حبيبها أرقى من ذلك الشاب المتعجرف, أحبتهُ وما زالت وعبثا تستطيع نسيانه.
ربما لمس فيها ذلك الشاب يأسها العابر، لن تحاسبه على أنانيتهُ، ولا على غروره بل ستتعلم منهُ، لن تعاقب نفسها على كبوتها ولن تعيره أي اهتمام، ستحتفظ بحبها الجميل وستكمل صبّ مشاعرها على لوحات وبفرشاتها المرتعشة ستحقق مآربها. ستبقى قيد صوت أحبتهُ وزاد هيامها به، لقد ألهب جمرها الخامد، أتاها وأخضعها تحت نيران سطوته فهو إلهامها وكل ما تملكه.
رجعت اليهِ، إلى الشوق الذي لا ينتهي، إلى حبيب غزا عمرها وسيظل يغزوها.

* * * *

صراخ أحدهم يوقظ صمت النائمين:

- المياه تغمر السطح.

إعلان صريح على بداية غرق العبّارة. حملقت العيون وملأت الأصوات المذعورة المكان، ساندتها الأمواج التي اعتلت هي الأخرى حتى ظهور المغادرين، تنازع الجميع هلعين على رؤية الخطب.

فصل (حازم) نفسه عن الأحلام ليقع فريسة الحقيقة المرة، أسرع يتفقد العطب وبنظراتهِ الحادة استطاع اختراق النداءات وتسكيت الجميع، يملي عليهم أوامره بإخلاء المركب من كل ما يحتويه من أثقال زائدة، يأتيه صوت أحدهم من بعيد:

- سيبتعلنا البحر وسنموت غرقا ...
- بل نستطيع انقاذ انفسنا، تشجعوا يا رجال ودعونا نتخلص من كل شيء، أرى أن الحمل ثقيل ويجب رمي كل شيء يمكن الاستغناء عنه.

مشاجرة كلامية بين إثنين:

- أرجوك ألاّ تقذفها .
- لكنها الأوامر ويجب أن نتخلص من كل شئ من أجل النجاة.
- لا أسمح لك بقذفها.
- لكن حياتنا في خطر.
- إنها نبتة ويجب أن تبقى معنا طول الترحال.
- لا أفهمكَ أراك رجلا معتوها أنانيا لا تأبه لموتنا، هاتها وإلا قضيت عليك.

تدخّل (حازم) محتدا:

- أتركها ولا تلقها فانها فعلا رمز الاستمرارية، لنحظَ ببركاتها.
- أشكرك يا (حازم) لأنك أنقذت نبتتي من الغرق.
- يبدو أنك رجل محب للحياة، تعال ننصرف معا من أجل تخليص السطح من المياه الدخيلة، يجب الاستعانة بقبعاتنا وأحذيتنا، هيا أدعُ الجميع إلى العمل.

لقد كانوا في حالة حرب بداية, يلفون ويدورون حول أنفسهم، يخطئون الخُطى، يسارعون في خلع نعالهم، يزيلون المياه ويحاولون منع انسيابها داخلا.

العويل يقلق الدجى، يؤرق بدرا ارتحل بلا رأفة، يذهب في نزوة عابرة، تطول فيشق الخلق أثوابهم تكفيرا, لقد أيقن سر عذابهم، الليل وحلكته, لقد عملوا على فصل أنفسهم من عبّارة غادرة إلى عالم مجهول، لا يدركون أمبتعدون أم هم عالقون بين الماء والماء ؟ ينطلقون من دون وعود الى الآمال الضائعة، يحملون مصائرهم على عبّارة قديمة.

سرت أشباح القرار ليلا فجعلت النهار البعيد يموج فيها، تقتفي الأسرار فتظهر على شاكلة وحيّ تتقاذفه الأمواج الصاخبة، سُلمت الحرية للعبودية .

يناجون البدر معاتبين ولا يجدون سوى التطواف داخل النفوس التائهة، أشبه بدخول مدينة مباحة فاقدة الأبواب، يرون الأسرار تعوم فتخرج من الأعماق الدفينة، تبحث عن مرساة. الأفكار منبع الكلام إنها ترتدي الآن القفازات السوداء، تتدافع وتتسرب من سبيل إلى آخر ومن موجة إلى أخرى فتتوقف عند المحركات، أي عطل فيها يكون نهاية الأحلام.

ومضة نور تخترق الظلام بعدما استكان الأمر وهدأت النفوس، ذهب الجميع في سبات إلا (حازم) الذي تخبط داخل أفكاره يخشى رجوع المياه إلى السطح، يلمح ذلك النور، أشبه بمنارة بعيدة مضيئة، النور يقترب إليه، يتأرجح وسط العتمة ويختفي، لم يكن كافيا ليتحقق من أمره، استغرقه الوهم فشكك بالرؤية، اليس منهكا؟ ما مرّ عليه اليوم يفوق الاحتمال.

العراب يأخذ جلّ تفكيره، يتخبط بالشكوك نحوه، لم يرهُ منذ بداية الرحلة وولوج المياه لم يكن عفويا لا بد من وجود عطب ما ومن الممكن أن يكون قد هرب بالنقود كي ينجو بنفسه! يجب أن يبحث عنه! لكن كيف يتم له ذلك والظلام يطبق ثقيلا؟ سيأخذ مكانه كي يقوم على نجاة كل هذه الأنفس التائهة بين الضياع والبحث.

تنزلق عيناه نحو البحر الصامت، كأنه يتفقده! ما زال قابعاً في مكانه، يصغي الى آهات الهلع الحبيسة، يصم أذنيه وتعمى عيناه ويبقى النور الخافت يتردد من حين الى حين أمامه، ربما يكون الفرج قريبا والعبّارة تصل نهاية الرحلة, إنها تقترب من الشاطئ فعلا لأن النور أصبح نقيا, إنهُ ينتهك بصرهُ.

عيناهُ تستديران نحو النور الخافت، يقف والنور يلاحقه ُ، أشعلهُ غيظاً، يسير إليهِ من بين العتمة فيغمر وجههُ ويسمع خطوات قريبة. لن يصاب بالهلع ولن تخيفه الأنوار بل هو حب المعرفة لتقصي مصدر تلك الهالة التي تظهر وتختفي، تعلو وتنخفض، تترنح على أنحاء جسده تلبث للحظات وتذهب.
يتسحب من بين الأقدام العارية، يزيحها برفق مختلسا النظر عبر الظلام يحاول تقصي الحقيقة.
استطاع الفجر من الظهور إشفاقا تلتحق به ذيول الصباح البيضاء، ترافقها جمهرة من السحب المنخفضة والمياه الهادئة تمهد الطريق نحو السبيل.

* * * *

قال أحدهم:

- ما هي وجهتنا ؟

يجيبه أخر:

- وهل للحالمين وجهة ؟
- ماذا؟ وهل سنبقى تائهين؟
- لمَ لا!
- اليَم لا يحتمل سوى الحالمين.
- لكن إلى متى؟
- إلى أن يكتمل الحلم يا هذا.
- وهل للأحلام بقية؟
- ولمَ لا!
- لكن النهاية؟
- وهل للحلم نهاية؟
- لمَ لا!
- لنوقف إذا ذلك الحلم .
- إن أوقفناه الآن سيصبح كابوسا!
- والذي نحن بصدده ألا يعد كابوسا؟
- وهل كُتب علينا أن نخرج من كابوس لندخل في آخر؟
- نعم يا أخي وهل هناكَ غير ذلك؟
- ويحكَ ولمَ كل ذلك التشاؤم؟
- أرجوك ابتعد عني، أتركني لحالي.
- بل أريدكَ استدعاءه.
- من ؟!
- رب العالمين.

تنتصب النبتة المزهرة أمام الوجوه التعبة، فتزيدهم تفاؤلا، قوة وتحدياً.

استطاعت الأمطار الغزيرة أيضا النيل من جسد (حازم) بالرغم من انزوائهِ المتعمد في ركن بعيد من ثرثرة الرجال وضوضائهم، استهدف الأبتعاد، غاص بافكاره يستقيلُ بالذكريات، تمنى لو استطاع الاحتفاظ بورق للكتابة، حتى لو تحقق ما تمنى فسيتعذر عليه الكتابة بسبب المياه المنهالة التي تضربه ضربة تلو الأخرى، لا تمهله إلا اذا استحضر محبوبتهُ فسرعان ما ينسى أمرهُ، يسألها المجيء فتأتيه بدون تردد، الخبايا لا تهدأ ولا تسكنُ، تطرق ذهنهُ فلا يقدر على تهدئته، يشعر بأنه خائف آمن، ميت حي، بعيد قريب, يسحره الشوق إليها ويتعالى, فيدرك تمام الأدراك أنه لا بد من التدوين.

ينحتُ أسراره على سطح المركب، يغوص في متاهة الألم، يُقرب الأوهام وبحميمية يزرع الحقيقة فتنمو كبرعم مزهر يلقي هالة نور في الدجى المُعتم، نور يليهِ نورٌ فتتحد الأنوار مخلقة شعاعا مجنونا يتولد من الأشعة، كلما اقترب منها تتعدد ألوانها، إن تملكتهُ رغبة النفخ تتحد الهالات بالألوان فتشكل بؤرا مضيئة كبيرة تشابه قرص الشمس بحجمها تبتدئ فصلا ً لطيفا ً هادئا ً يبحثُ عن الهوى الضائع، يناديهِ مودعا الصمت، يستدعيه متجرئا.

يأخذهُ بين أصابعه يقسو عليه وبكفه يزيلُ بقايا الخشب الزائد، يلملمهُ بحنان يغمر أناملهُ فكفِ يده، يمسح برقة مكان النّقش، يتأمل طرف المدية معجبا.

مياه المطر تقصد الخشب الرطب، تلهثُ غيرة، تغمر المعاني وتُغطيها كعدو حاقد، كلما انزلت غضبها واجتاحتها عُنوة اشتدت الثغور إبتساما وانتصارا.

اليد المضطربة تزاول العمل، ليس هناكَ امكانية للتأجيل، المدية تقتحم و(حازم) يصيغ العبارات، يزيل العقبات ويُنحيها جانبا، لن يسلم آهاته للريح العاصفة ولن يسمح للدموع المنحدرة الزوال مع الفيضان، سيحتل الكون صراخا إذا غادر الحياة وأشعاره تتأخر في الوصول.

لا بدّ أن يجدها أحد ما، سيوصي بإيصالها الى شاطيء الأمان، متأكد من أنها ستبلغها بالرغم من عدم معرفتهِ لعنوان حبيبته ...(زينة) ...

العيون تبحث عن شاطئ ما، ترقب مسيرة المركب وتترقب ظهور اليابسة وحازم منهمك يشق طريق الخلاص داخل المسلّة على سطح المركب، بمساعدة مديته الصغيرة.

الأمواج تتلاطم، تساند المركب مهتاجة، ترفض التعاطف مع الراحلين وتشاركهم محنتهم, تهيم وتتلذذ بلوعتهم، تحيطهم كربا ً وكرهاً وهم عالقون في وسط العاصفة يحاولون بضراوة إنقاذ أنفسهم, أو ربما هذه المعركة دليل الرّفض والإستيلاء، الرحلة تطول والحال يزداد بؤسا وسوءًا.
اليَم يسأل نفسه ُ مندهشاً:

- أيمكن أن يتوقف شغفهم؟ لماذا يعتقدون أن الأرض هي الأنتماء الوحيد؟ حتى إن قست عليهم فيظلون أبناءها. الجريح اذا نزف دمهُ تتوثق علاقته أكثر بها، بينما الغريق يفقد علاقته بالمكان حال غرقه. سر الكينونة والفناء العظيمان.
  المصائب الناجمة من الأرض يتلقونها صامتين، يتعايشونها ويحاولون إعطاء التفسيرات والتوضيحات لوجودها, فتصبحُ بالنسبة لهم منطقية فيتقبلونها راضين, حتى إن عجزت عن إطعامهم، يلتزمون لها ويلتصقون بها.
  بينما إذا كانت المصائب ناجمة من البحر يلومونني لدرجة اللعنة. يا للإنسان العجيب يطمح لركوبي وما يلبثُ يرجوني العودة، يفضلها دائما عني، يا لهُ من سيء ناكر للجميل، إني لا أفهم جحودهُ, هذا لن أحقد عليه، ربما هي التقاليد المتوارثة بأن الإنتماء يكمن على سطحها فقط.

يلتفت اليمَ إلى (حازم) المنهمك بعروضه الشعرية يسألهُ:

- وأنتَ يا (حازم)!
- نعم يا بحري العملاق ...
- الآن فقط أدركتني عملاقا ً؟
- حسبتكَ واسع القلب، تتحمل أعباءنا، تشعر بمعاناتنا وترأف بنا...
- هل أنتَ نادم يا (حازم)؟

- لو أدير عقارب الساعة ...
- لِمَ؟
- ليرجع بنا الزمن إلى مكان الوطن ...
- أتبغي التقاء الزمن الماضي للمكان؟
- نعم ...
- دع زمن المستقبل يلتقي بالمكان المعهود ..
- كيف يتحقق ذلك وأنتَ مصدر للإحباط؟ أعتقدتُكَ سبيل تحقيق الأمنيات.
- أحلامكم كبيرة يا (حازم) إنكم أسطول من الضائعين ...
- لقد أغرقتَ أحلامنا، من تعتقد نفسكَ؟ هناكَ من هو أكثر منكَ قوة وعظمة.
- ماذا ستفعل؟
- سأتحداكَ، لن أدعكَ تنال مني، آه لو كان هناكَ ...
- ماذا تريد يا (حازم)؟
- أريد كأسا ...
- تحيطكَ المياه وما تزال عطشا ؟!
- بل هو كأس خمر ...
- ولمَ تريدها؟
- ألا تدرك أني إذا شربتُ الخمر ساعة في العمر, أستطيع إذهال جميع السكارى ... وما بالك أني استطيع ركوب أمواجك الهائلة؟
- تعالَ هلمّ، اتبعني سامنحكَ الكأس والأمان ...
- ما زلتَ تسخر منا!
- ألم تطلب مني كأساً ؟
- بل أريدك ألا تقف معصوب العينين ..
- جميع تلكَ الأمواج عيوني!
- ساعدنا على اجتياز محنتنا، امنحنا لحظة بقاء...
- تتوسلني إذاً، والهكَ ألا تتوسلهُ؟

قهقه اليم ساخرا حتى وصلت أصداؤه السماء :

- إضحك كما يحلو لكَ ... إسخر من عظمة الله عزّ وجل ...

يستمر اليم بالضحك و(حازم):

- أين هو انتماؤك يا بحر؟ لا تقل لي الأرض, إنها تعود لنا، ولا تقول السماء، أنا لبارينا، إنكَ تعود اليها، ولا تقل الجنة، إنها لغيركَ، أما النار ... فقد قررت منذ زمن بعيد أن تكون عدوّكَ ... لو تعلم كم هم أعداؤك؟

* * * *

باتَ سُباتهم كسبات المنتصرين، في عرض البحر تائهين، ألا يبدون كذلك؟
يتخذُ كل حالم رُكنا على قدر حجمه، لا حدود ولا سدود، الحدود على سطح المركب مفتوحة، المكان الوحيد الذي لا يمكن أن تُبنى فيه الموانع، لكل واحد ملكُ مؤقت لا يتعدى ... المتر الواحد.
تآلفت النفوس وتشاركت لتقف في وجه الريح، لم يبقَ هناك سوى صوت المُحرك، يتوسل الطريق المفتوح فاقد النهاية, أصداؤهُ تُعلن الأستمرار في رحلة ... الطموح ... أو ربما رحلة الهلاك، لا أحد يعلم!
للطموح دور فعّال، الآن اكثرمن أي وقت مضى، لأنهُ لا أحد يستطيع استدراك الغيب.

الرؤوس المُنهكة لم تعد سندا للوجوه الشاحبة، تتدلى على أعناق ارتخت بين الأكتاف الهزيلة، هي غفوة كباقي الغفوات التي بواسطتها يمكنهم تدارك دوار البحر, كلما انتفضتهم الأمواج ترنحوا مستسلمين يُمنة ويُسرة فتبدو أجسادهم كقربة مليئة فاقدة العنق والأطراف, أكثر ما يبرز منهم بطونهم والأجساد الغائبة عن الوعي لا فائدة منها إلا إلتهام الحيتان لها, طعام جاهز لامتداد حياة الحيوانات المفترسة، قانون الطبيعة الغريزي.

هو فقط (حازم) الذي لا يكف عن نقش المُعاناة، ينقش السطح غير مُستكفٍ فتدوم ملحمتهُ على جدران المركب أيضا, فبالنقش يكون تقويم الروح والنفس والبقاء.

يُخيل لهم أن التيه وصلَ حدود السماء يطبع البدر بصمته في كل مكان، إن ارتفعت وإن انخفضت الرؤوس فتتمكن من رؤيته يظهر في مظهر الحكمة والجدية، يُغلق المنافذ ويشاركهم الظلام.
أصدرَ بيانا، وبملامحه الحادة ورجولته المتقدة قرأه للبحر أمام الجميع ولم يدرك من المقصود هو أم البحر:

- من قال لك أنكَ البطل؟ لا تصدق...إنهُ المطر. ايّاكَ أن تتنفس أو ترفع الراية الحمراء...فيأكلكَ قرش البحر!
أنتَ في الزاوية الأخيرة للهلاك الأسود...التحفوه. فهو نصف كذبة لحفل منتظر...لا ترد جم نفسك بحريق التلويح...لكَ لحن القدر.
هي الواجهات وإن طالَ انتظارها...تزوركَ ساعة الخطر...قُل توكلتُ... هي رحلتي بعبّارة الوجود...واكتب علامة استفهام في دفتر السفر.
فرشاتي تركتها في قدح الشاي...هناكَ...ونسيتُ نظّارتي...هكذا أرى العالم أقبح مما أتذكر.

تشاركوا الحلم واتفقوا على بناء محراب حال وصولهم الشاطىء، يجمع شتاتهم في بداية كل عام، سيتوافدون إليه وكأنهم يتوافدون الى وطنهم الأم، سيسمونه (محراب الحالمين) وتمنوا أن يبنوهُ بقرب عين ماء متدفقة ويؤمهُ كل واحد منهم محملا بجميع أنواع الطيب والفاكهة، يتشاركون الطعام، يسترجعون أياما أمضوها معا، عصيبة كانت أو يسيرة.

أحدهم أصابهُ الفضول:

- في ترحالنا نكتشف أشياء جديدة لم يكتشفها من قبلنا أحد!

يجيبهُ آخر:

- ماذا تقصد؟
- أن ّ للكون بدرين، ألا تراهما؟
- صحيح اعتقدتُ نفسي مخطئا ولم أبُح بالّسر العظيم!
- تعال لنتفق اذا ...
- على ماذا نتفق؟
- صه اخفض صوتك لئلا يسمعنا المحيطون بنا، لا تدلِ بهذه المعلومات لأحد، سنكون أنا وأنت أول من اكتشف شيئاً جديدًا يتعلق بالفلك.

صيحة حازم قطعت جحيم المسافات، أيقظت الجميع وحتى الأسماك في البحر:

- أين هو عراب المركب؟ منذ فترة طويلة لم ارهُ, لِمَ المركب متوقف؟

يستدير الجميع بحثا عنه، أنهم لا يقوون على التحرك وكأنهم أصيبوا بشلل (حازم) يكرر السؤال:

- أين هو؟ لقد تركنا نتخبط وهربَ بالنقود، لكن لمَ الهرب؟

* * * *

طقطقة خفية تخرجه من قلقه فيصغي إلى الصمت المحيط به, نظراته تتسلق الأجساد البشرية التي تختبئ في العتمة، يتحرر منها متكئا على أحدها عارية القدمين, يستنشق رائحة البحر المزفرة, يندفع نحو الطقطقة ماداً يديه كمعين تقودانهُ إلى حيث لا يدرك، يخطو والريح الجانبية تلوحهما، يسمع اهتياج البحر الرابض، يكسر السكون حتى يصله الموج متحطما على الحواف، تنزلق نظراته غير المتوازية إليها، يحدّق عبر الفراغ ومن خلال الفوضى العارمة يحاول مسك زمام أموره لئلا يقع أرضا، يستدير نصف استدارة حول نفسه يحاول التقاط مصدر الصوت مستصعبا، الطقطقة الخفية التي انتزعت السكون من حين الى آخر.

تنام الأجساد وكأنها فاقدة الوعي، تفقد حرارتها فتتجمد قلوبها حتى يخيل إليهِ أنها تغادرها الأنفاس. داست قدمه احدى الحقائب، انحرف، فقدَ توازنهُ وسقط على ركبتيه متابعا سيره بخط متعرج يتوجس من جديد الصوت، يتحسس السطح ببطء معاودا الكرة.

يشق طريقه فإذا بشخص يحاول إدارة المحرك بحركات يديه الواسعتين حتى لتصلان منكبيه العريضين، بدا وكأنه بحاجة لأيدي أخرى تساعدهُ.

وقف خلفه والرجل مشغول ويداه ترتجفان تعبا، يتنفس سريعا، لاهثا، حريصاً على عدم ترك المقود، ظهر أمامه كشبح مألوف وعلى الرغم من العتمة المنتشرة استطاع تمييز قميصه ذي الدوائر الواسعة، لاحت الدوائر السوداء ببروز من خلال اللون الأبيض فشكلت لدى (حازم) استرجاعا سريعا لذات القميص والمكان الذي رآه فيهِ. لم يعرف كم مرّ عليه من الوقت وهو واقف يتابعهُ بإصرار، ينظر اليهِ بعيون حادة حتى استدار الآخر متفاجئا وبصوت مرتعد قال:

- كيف عثرتَ عليّ ؟
- قل لي أنتَ ماذا تفعل هنا ؟
- لقد هرب العرّاب وأحاول ...
- تحاول تسوية الأمور وحدكَ، لمَ لا تطلب المساعدة ؟
- نعم ... نعم ...
- نعم ماذا، هل سبق أن قدت عبّارة من قبل؟ تنح انتَ الآن جانبا ودعني أعالج الأمور سريعا، يجب أن ننجو بأرواحنا ... لو كان النور أكثر أضاءة هنا لسهل العمل.
- لديّ نور سأضيء لكَ.
- اذاً أنتَ من تعقبني ليلة امس؟
- نعم أنا.
- وما الذي أردت معرفتهُ؟
- لا شيء، لا شيء ...
- أردت التأكد من وجودي أليس كذلك؟
- بل أردت ...
- لا بأس، لا تقل أي شيء، هيا لا وقت لدينا نضيّعهُ.

نظر (حازم) الى نادل الشاي، ابتسم ابتسامة مستهترة وتابع العمل يستغرب ما يمرّ عليه من هذا النادل غريب الأطوار، هزّ رأسهُ عاتبا والنادل صامتاً.

- لا بأس يا نادل الشاي ألا تصب لنا كأسا ؟
- أتريد شاياً ؟
- بل أريد كأس خمر!
- خمر؟
- نعم خمر؟

صمت النادل، وتابع (حازم) عمله قائلا:

- هل يمكنك أن تصبح نديما فنشرب معا نخب هذا الضياع والمتاهة التي نحياها؟
- أستطيع، لكن لا خمر ولا كؤوس هنا!
- ألا يمكنك أن تكون نديما بدون خمر؟

- وكيف يكون ذلكَ؟
- ألا ترى وصول الزجاجة؟ ها هي في قبضتي وها هي الكؤوس تتراكم حولنا، تأخذ مكانها في الرفوف، يمكنك التقاط اثنتين، لا تنسى أن تلمعهما، فأنت خبير في ذلك.

استدار النادل كطفل يحاول رؤية ما يراه (حازم) وهو يراقبه وحازم يستمر في الكلام:

- إنني امرر أناملي حولها، أداعبها وتداعبني، أقربها اليّ فتقترب من فمي، آخذها بين شفتي، امتلكها وتمتلكني، أعتصرها حتى الثمالة فتهصرني، أرتشف منها القليل فتسرقني، أطلب المزيد فتلبي طلبي، تمنحني المزيد، أسكر وأراها تترنح بين يديّ، بمعيتها أدخل جنتي، الا تراها ؟
- على ماذا تتكلم ؟ لا أرى شيئا ؟
- العالم الجديد؟ انه امامك!
- إنني لا ارى شيئا!
- لماذا ؟ أما زلتَ تعيش في السّراب؟
- أنا الذي أعيش في السراب أم انت؟
- تعال، اقترب، سأقول لك الحقيقة، إننا الاثنان نعيش سرابا !
- لا أفهم قصدكَ ؟
- ولن تفهمني أبدا، ولن تصل أبدا إليها!
- لماذا تعتقد ذلك ربما أسبقك.
- لذلك أردتَ الانفراد وحدك بالمقود؟ سأرى كيف سترفضك.
- ولمَ ترفضني؟
- لأنها لن تكون لكَ، إننا نتشارك الحلم نفسه!
- لكن إذا مت سأحصل عليها.
- أتريد موتي؟
- ربما لن تصل إليها فنحن في متاهة لا نهاية لها.
- وربما لن تصل أنت ايضا ؟ إلى حين تعال وساعدني على اجتياز محنتنا، لنكن يدا واحدة فنحن نحمل المصير نفسه.

استغرب النادل مهارة (حازم) في القيادة, هبّت ريح غاضبة، تحكّم بالإستدارة، يأخذ ذات التيار غير معاكس، ينزلق مع الماء، يترنح مع الأمواج، يرتفع ويهبط، يعاملها بقسوة حتى وصلت بهم العبارة الى بقعة هادئة نسبيا.

ألف (حازم) أكثر قسوة منها عندما ابحر مرارا بمعية الصيادين وهو صغير. تعلم التخطيط قبل وصولها والاصطدام بها، اكتشف انهُ يمتلك سرعة البديهة في تخطي الأمواج غير المرئية ليلا، والقدرة على تحديد الزمان والمكان لتعاقبها واجتيازها.

* * * *

كان الجو معتدلا، النهار في بدايته، العيون تتفتح على مداها سرورا، إنهم يرون يابسة من بعيد. رمت المياه العبّارة على شط خال وغريب، ارتعشت القلوب وارتعدت الأجساد حبورا، باب الخلاص بات وشيكا، أخيرا بلغوا الهدف الأم فطيمة تحضّر نفسها للنزول, تحتلها بسمة حائرة. عيناها الغائرتان تبتهجان انتصارا، تحاول لملمة شتات اليأس الذي احتلها، والطفل شادي يبحث في مخيلته عن والدته يجول بنظراته الى الأشجار البعيدة يخطط لهُ طريقا، عبرها يبدأ البحث عنها.

أسراب الطيور تهجر الشاطئ، تسرع في مغادرة المرفأ الذي بدا مهجورا مهملا. تملأهُ القاذورات، والخردوات المتراكمة تسد طريقهم .

يجازفون في النزول الى الشاطئ ربما وصلوا الهدف، سيكونون هنا أكثر سعادة، لقد تركهم العرّاب مغادرا بدون عنوان منه ينظم سعيهم سوق العمل، وها هم يصلون من دونه, يعلمون أن وصولهم الى أي ساحل غير شرعي، ويعلمون أيضا أنهم يُستغلون، يدفعون كل ما يملكون نقدا بحثا عن فرص عمل في دول غنية تبعدهم عن الفقر والبطالة.
تهرول الأقدام الحافية تندفع نحو الشاطئ وتحاول التقدم، الكثيرون يفرغون ما تبقى في أحشاءهم داخل المياه. وبعضهم يستغلونها للإستحمام . لا وقت للمرح ولا مكان للصخب.
السماء محجوبة بالسُحب، قرعت الطبول، توقف النزوح وطوقت العبّارة خفر السواحل ومنعوها من الرسو. تكدرت القلوب وصوّبت البنادق تهددهم بالرحيل، أغلق الشاطئ، طورد النازلون وأرجعوا الى العبّارة مكبلين.
بكت النساء، تدافع الجميع هربا يلجأون نحو العبّارة يطلبون النجاة، تتشبث الأذرع بحبال الهواء تستنجد الخلاص.
حازم يوزع نظراتهُ الفزعة يحاول تهدئة النفوس الثائرة، يساعدهم على العودة ويستعد للنزوح يحاول الإبتعاد، يعوم بعبارته داخل الأمواج بصوته الثائر:

- إننا قافلة من الجروح ترحل لتطلب الحياة من شرايين الغربة، على مضض أجسادنا في منفى، إننا بشر تملؤنا الآلام، هناك أرواح ثكلى منهكة تدرك تماما أنها ستنام في يوم تحت التراب، إن لم تضمنا أرض سيبتلعنا بحر بلا ضمير. وطننا، تركناك مجبرين والروح ما تزال تلوذ بسمائكَ، كل الأماكن تعود لله فهو باريها ويمنعنا منها بشر مثلنا.

ردد آخرون:

- لن نفقد عزيمتنا يا (حازم) ما دمت معنا.

يحلّ ليل آخر، يتسرق بعض الرجال يأتون من اليابسة بشئ يمكنه ان يؤكل، وبعضهم يحاول صيد بعض الأسماك والنساء بختبئن داخل المياه يرشدن الآخرين يراقبن الطريق. يطلبون مبتغاهم ليلا وينامون نهارا داخل البحر ينتظرون أمل استيعابهم.

ينهمك (حازم)بتصليح عطب ما والنادل يختفي ليلة بحالها ثم يرجع فجرا بشكل مختلف وياقة جديدة، حليق الرأس والذقن، يلبس لباسا جديدا.
يلتقيه (حازم):

- من أي سماء جئت؟ بحثت عنكَ لتساعدني بإصلاح العطب ولم اجدك!
- نعم، لقد تسللتُ ليلا ورجعت قبل حلول الفجر.
- أرى ذلك جيدا، تُرى من أين أتيت بكل ذلك؟
- اشتريتها، لو تدري كم هذه المدينة جميلة ومزدحمة بالسكان، ملأى بالمقاهي والحسان.
- لماذا رجعت إذا؟
- لم أستطع المكوث كثيرا فالجنود يملاؤون المكان، خشيت أن يسألني احد عن جواز سفري، ثم أنك تدرك إنني لن أتركك وحيدا فطريقنا واحد.
- اذن لماذا لم تأخذني معك؟
- أعرف مدى تعلقك بالباقين وأدرك انك لن تتركهم وحدهم. ماذا ننتظر يا (حازم)؟
- ننتظر؟ اي سؤال هذا ؟ ربما سمحوا لنا بالإستيطان على أرضهم .
- واذا لم يسمحوا؟
- لا أدري؟ اخشى اننا لن نستطيع الإستمرار في الإبحار على متن هذه العبارة البالية.
- آه يا (حازم) لو يسمحون لنا بذلك سنعيش في ثراء، انني لم ارَ مدينة أجمل منها, أعتقد أن (زينة) ...
- ماذا بها (زينة)؟
- أقول ... ربما تستوطن هنا.

- هل رأيتها؟
- لا، لم أحظَ برؤيتها، بحثتُ عنها كثيرا، لو تقول لي عن أسمها الكامل كي أسأل عنها، سآتيك بأخبارها غدًا إن شاء الله، ما هو اسمها الكامل؟ أكيد أنك تعرف ايضا مكان سكنها، ألم تكن حبيبتك؟
- وما زالت، ولِمَ أجعلك تبحث عنها بدلا مني؟

يصطبغ الأفق احمرارا و(حازم) ينتظر المغيب، يراقب النادل من بعيد لا يريد الكشف عن أسرار نزوله عن المركب من أجل البحث عن (زينة).
أمضى الليل بطوله يسأل عن فتاة أحلامه، الأبراج الساكنة تلوّح له من بعيد، ربما وصلته سابقا رسائلها عبر الحمام الزاجل، إنها تملأ المكان، تعمد الحفاظ عليها وتكرار قراءتها، لكن التيارات البحرية اقتنصتها منهُ، أرسل لها هو ايضا عدة رسائل حطها الحمام الزاجل على سطح بيتها! وربما ابتعلتها المياه القريبة!
خطواته متلهفة حائرة يمر بأزقة مرصوفة بالحصى، يعبر زقاقا ويحتويهِ آخر، أكيد هو أنهُ في مكان قريب منها، يرسم في مخيلته اللقاء. يعلم أنها سجينة العشق مثله، ستكون بانتظاره خلف نافذتها، يدرك تماما ما يمر عليها من لوعة الأشواق تنتظر اللقاء، قلبه يدله على الطريق، ما من أحد غيرهُ يعلم إلى أين يذهب، إنهُ قريب جدا، يقف أمام بيتها، كان الباب الصلب مفتوحا، يلتقيه الصبي وعلامات الحيرة والشك تبدو عليهِ، أمعن السير في حديقة بيتها ولما اعترضهُ الصبي ناده باسمه قال له (حازم):
- وكيف عرفت اسمي يا صغيري؟
- (زينة) كلمتني عنكَ،انها وفيّة لكَ.
- نعم اسمعها تستدعيني بصوتها الصّافي وروحها الطاهرة تلازمني، تناجيني بعذوبة ورنين متقد يلهب النفوس، صداهُ يملأ فراغ كوني، اقترب لترى ما تقوله عيناها.

يقاطعه الصبي:
- تدرك إذن إنها تبحث عن حبيبها الضائع...

يستمر (حازم) بالكلام:
- تقول لي: إنكَ الوحيد الذي يستطيع فهمي كما تفهم معنى صمتي، تبقى ظلالك معي حتى وأنا في سبات، إن حدث ونسيتكَ تغفر لي خطيئتي، إن حصل أن اشتقتُ إليك ولم أجدكَ، أبكي فتمسح دموعي بمنديلكَ، تلازمني فأنتَ حارس أحلامي، كما تستطيع إيقاظي فتقلقُ منامي.
- إنك خائن اذن!

صمت (حازم) أمامهُ، خرج من بيتها كما دخلهُ وصدى الصوت يلاحقهُ، خائن... خائن...خائن...

عاد إلى العبارة.
- (حازم) أعلم أنك ما زلت جائعا، بحثنا عنك طويلا ولم نجدك؟ أعلم أنك كنت في زاوية ما تكتب الشعر لمحبوبتك، لو تقرأ علينا بعض ما كتبت.

ركن (حازم) ركنا وحيدا، صامتا انزلقت الدموع من عينيهِ يستحضر ما مرّ عليهِ، لقاء حازم الصبي، بيتها الجميل المهجور، حديقتها التي غادرتها فراشات الحياة ورؤيتهُ لصورتها التي رسمها بريشته، صرخ من الداخل يسترجع الذكريات، يتخبط في كيفية البحث عن (زينة) التي غادرت بيتها وهو قريب منهُ ويستذكر كرم طفل صغير ينهمك في البحث حبيب ضائع ويستاء من نادل أناني ومن أنظمة فاسدة تتركهم يموتون جوعا بل وتطاردهم عمدا، أدرك أن الطغاة ما يزالون يسيطرون على العالم، أفكار كثيرة تؤدي به الى الصراخ والصراخ مستغيثا وما من أحد يريد ان يسمع الإستغاثة.

يمر الليل طويلا ويأتي فجر آخر وهم ينتظرون الفرج حتى اغتالتهم بنادق الجند، تغير عليهم بقسوة بالغة، صرخة الظلم والإستبداد تقذفهم إلى المياه الهائجة.
تدافعت الأجساد المحاصرة تطلب العفو، تحاول النجاة, تقاذفتها الأمواج الغاضبة، تاهت فوقها، تأخذها بين طياتها، تظهرها الى العيان للحظات، تتخبط في حملها غير متحملة ثقلها، تتناقلها الى الثنايا مكررة الحدث.

صمتت النفوس وخبا المستحيل من عيونها، اتسعت بآبيؤها، غلظت جفونها وطافت الأجساد على سطح الماء يحيطها سكون الموت يخرسها الهلاك ينهكها الإنتظار.

* * * *

السبيل لا يحفل بالقادمين، ضاعت آثار السابقين ومن بين الحطام يظهر (حازم) وقلة من العابرين، احتقنت الدماء في وجنيتهِ وكأن الشمس أخذت ملامحةُ معها، يسرع بالعبّارة تاركا الشاطئ، يتفقد المياه فيما اذا كانت تحمل احياء بشرية، لملم الكثيرين وآخرون أخرجوا من الماء وأعيدوا اليها ثانية.
الغفوة والموت توأمان تُنسي للحظات القسوة فيذهب الحزن بمعية السّبات, الإرهاق والجوع قوّامان عليها مثل البرد القارس والعراء الحافل.
أنات الجحيم تتصاعد ويتواصل البكاء، لا خيار لمن يرى الموت بعيون مفتوحة، يقترب منها على شكل سلسلة احتضارات ، تساوم الوجود المراوغ بهفواتِه.
يجتمعون داخل مكيدة، يبتعدون عن الوطن ويرفضهم الآخرون، يغتصبهم المستقبل يقسم أرواحهم مصاحبا اياهم في طريق بلا رجعة.
ومن بين الجرحى والمتهالكين ينساب من شفاهم النشيد الوطني:

- هلموا بقدسية جراحكم الى الطمأنينة، هلموا بقلوبكم النقية ننشد للمسرات، نطهّر نفوسنا من الغصّات الجافة المتمردة، هلموا معا:
بقلوبكم الرؤومة نعوّض الله على فراق الأوطان، هيّا يا ضارب القيثار ويا ايتها النّاي، استبدلا الآلام بصخب وحوّلا الحزن الى فرح كقطع النرد، لونان عصيّان متبادلان لا يتبدّلان، أسود وأبيض ... الممات والحياة.

(حازم) يلاعب القطع البيضاء بصوته المتعب يبدو عذبا متهالكا على الإستمرار بالنشيد وسكنت تأوهات الجرحى، نام الألم وأحتملت خسارة المفقودين، هدأت الأفكار وأحاطتهُ الأجساد تشاركهُ الغناء كجوقة تتماوت على الحياة، يرددونه معا.

تشتبك الأيدي تهيم على مساحة ضيقة، يتراقصون على السطح التائه. تتعالى الأصداء تملأ الكون دوياً، تموج وتهيم على نفسها، تعربد فتداعب حجارة النرد البيضاء. صراخهم الجماعي يتصاعد شامخا يزعج الأفق البعيد، وتتراشق المياه الغاضبة من حولهم، يصيبها الجنون فتجنح الى تطويقهم، ما أن تلمسهم تتحول القطرات الى أزرار ورود، غُطيت بباقات منثورة حمراء، كل زر يحتضن قطرة وكل قطرة تطوّق صرخة من الأعماق، فُرطت الأزرار وغُمرت السيقان العارية، ظهرت قصيرة وغاب عنها خيالها. اختلط الصراخ بالأمواج، تلاعبت الأقدام بحجارة النرد السوداء والبيضاء تحاول عدم الانسحاب، امتلك الحلبة قدران متناقضان يتنافسان على رقصة الصراع على البقاء...
الأيدي تتمايل وتختفي الأقدام غرقا، الخُصر تعارضها بتزمت لكنها ما تلبث أن تتهادى إلى الأسفل, والأيدي تلوّح بلهفة العاشق وما تلبث هي أيضا أن تسكت عن التلويح.

لم تستطع الأفواه منع انتصار قطع النرد السوداء مزاحمة البيضاء فتتوقف هي أيضا عن الغناء. رهان الموت يرسو عليها، فشهوته جبارة، استطاعت أن تأتي على المباهج، عنيفة مصائرها، قضت على شغفها بالحياة وأضاعت بريق العيون الندية، كما استطاعت أن تضع يديها على شفاه طلبت الحياة بحبور، لكنها تحدتها فغادرتها مسرورة، لم تستطع المياه تكبيل الأيدي فتراقصت، ولم تمنع من طلب شفاعة السماء، فطلبتهُ، لكنها استطاعت أخيرا, إخفاق الأمل.

العبّارة تواجه الريح العاتية، تساوم أنفة العاصفة وتتعارك في معركة خاسرة، تحاول الزحف الى الأمام ولا تصل سوى الا مأتم تتناثر وتتخبط فيه الأرواح.
السحب تتآكل وتلتهم بعضها بعضا، السماء تصبح أكثر غلاظة وفظاظة. ينغلق الأفق، تعلو الأمواج وتضيق الطريق. تتخبط طولا وعرضا وتنقسم إلى قسمين، أحدهما يحمل (حازم) و (نشوى) وثانيهما يذهب بنادل الشاي بعيدا.

ماتت الأحلام، ركنت داخل جثث اتخذت لها الزوايا المظلمة سكينة، تخبط الوجود بين هوتين سحيقتين، البقاء والفناء فانتصر الأخير.
صرخ (حازم) في وجه البحر:
- لن أستسلم حتى لو طال نزاعكَ، يا لكَ من يم شرّير، تغمركَ سعادة غير منصفة، أعترف بأننا شهداء اليوم...لكننا سعداء! أتدري لمَ؟ لأننا استطعنا اقتحامكَ أياما طويلة، عارضناكَ...تمرّدنا عليكَ وعاصيناكَ.

لسعات القدر تأخذ (حازم) حتى حافة الجنون، خلع عنهُ قميصة ليغطي جسدها العاري:
فظهر جسده القوي وذراعاهُ المنفوختان. كشف عن صدره الرجولي فبدا كبطل شامخ.
استطاعت الشمس لفح وجهه الأسمر فبدت ملامحه المنسقة أكثر هيبة ورشاقة، عيون يقظة وأنف مرتفع متحدٍ، طرح نظره الى البعيد وأطلق غضبهُ الى الأفق الذي لا حدود لهُ.

- ارتدي هذا القميص وغطي عورتك.
- اشكرك، إني أرتجف بردا.
- ليس لدي شيء آخر أمنحك إياه.
- أحمد الله أني بقيت معك.
- يجب ألا تحمديه كثيرا، فهلاكنا وشيك.
- يمكننا أن نبدأ من جديد.
- نبدأ ماذا؟
- بالحياة، لمَ لا نعتبر نفسنا مالكيها ألسنا وحدنا؟ لا اريد الموت فبي شغف لما يتحقق بعد.

قهقة (حازم) بمرارة طويلا حتى خيل إليها أن قهقهاته وصلت السماء:

- يجب أن نحيا ما بقي من عمرنا.
- وكيف لنا ذلك؟
- اقترب مني أدفئكَ وتدفئني، نتعانق ونموت معا.
- ويحك يا أمرأة انك تهذين، ما كل هذا الجنون؟ إبتعدي عني.
- لا يوجد مكان آخر أذهب إليه، لقد أحببتك من أول ...
- صهي اصمتي، تتكلمين عن الحب ونحن في مأزق لا يؤدي إلا إلى الموت ؟
- لذلك أقول لكَ يجب انتهاز الفرص .
- وقت ؟ عن أي وقت تتحدثين؟
- ما رأيك في العشق يا (حازم)؟

حدّجها بنظراته الحادة صامتا. فاسترسلت:

- بقدر ما تخيفني نظراتك أحبها، إني مغرمة بك لماذا لا تبادلني الشعور؟

- وما أدراك بهذا الشعور؟
- العشق، إنه أجمل ما في الوجود، إنهُ الطعنة اللذيذة الأولى!

انتبه (حازم) لقرب جسديهما شبه العاريين، ارتعشت أوصاله وتعرق جسدهُ، ارتجفت غرائزهُ، لأول مرة منذ زمن يستشعر الحرمان ويستذكر رغباته الموقوفة.

- لم الحيرة تقض مضجعك يا (حازم)؟
- أنا ... ؟
- لمَ تتوقف عن الكلام ؟ تكلم صوتك يريحني.
- العشق؟ يا من لا أعرف اسمها تستهينين وتحقرّين أعظم شعور يحياهُ المرء!
- العشق! لئيم لعين.
- لا تكلميني أنتِ عنهُ فمن تكونين كي تقدّري هذا الشعور؟ إنه أعظم أسباب الإلهام.
- الإلهام! وما هو؟
- العشق يا فتاتي يولّد الإلهام والإلهام يصنع المعجزات والمعجزات تسلبنا راحتنا, تأخذنا الى السّهاد، والسهاد يبعث الروح إلى الإدمان، إدمان الشئ الذي نحبه ولا نستطيع التخلص منهُ، هل عرفت الآن ما هو العشق؟
- عشقي أنا مختلف.
- نعم أدري.

* * * *

طرقت الباب، لا جواب! تعيد الكرة، كأنه أصم. إنها بحاجة لجميع قواها، لن تدع الخوف يستحوذ عليها، استمرت في طرق الباب نفسه والشيخ لا يستجيب، الحّت في طرقه حتى خارت قواها، النور الذي تراه هو دليل قاطع على وجوده في الداخل، ثم ما الذي يخيفها، صوت حبيبها؟ وهل صوت الأحباء يخيف!؟

- " يا لتعاستك يا (زينة) منذ متى أصبح صوت حبيبك مخيفاً!؟".
- " لا ترجعي اليّ يا نفسي، لا احتمل توبيخك، كفى ".
- " تحاولين التهرب مني، أعاهدك لن تنجحي في صدّي ".
- لا أتهرب, هو فقط ... "
- ما هو؟ ليس لديك شجاعة للقول أنكِ جبانة مترددة ؟".

تحدث نفسها، تحاول التهرب من منازلة الحقيقة. لماذا تثار الطمأنينة داخلها فتطلب الأمان! ما الذي سحق خلوتها وأدى بها إلى هذا التصرف الأحمق الغبي؟

- " أصبحتِ تصغين إلى عقلك الباطن يا (زينة)".
- " لا ... بل ...".
- " بل ماذا؟ ما الذي تؤولينَ إليهِ؟ عمّ تبحثين؟ لمَ كل هذه المخاوف؟ أرجوك يا (زينة) لا تدعي الأوهام تجردك من اليقين ...".
- " نعم يا عقلي الباطن سارجع إلى مخدعي أحاول الخلود إلى النوم، كما كل ليلة، سأنام قريرة العين، لن أدع الأفكار الشريرة تستحوذ على عقلي مرة أخرى ".

رجعت أدراجها تحني رأسها بؤسا وحزنا ، تحمل معها الهموم، تخطو الخطوات السابقة بتثاقل وانحطاط، يستبقها شعور مغاير، عارية أمام باب القدر. تمنت لو تطلق صيحة ما وبأعلى صوتها، تهز كيان الوجود، تُغلق بها منافذ القلق، تمحي منهُ الغيبية التي تجتاحها. تقتل المجهول وتنفرد بالعزلة كي تمزقها إربا إربا وتقول للزمن العقور:

-" عاقرتني ودنوتَ مني، لم أحظَ منكَ إلا بالعدم، أخذتَ ربيع عمري وتركت لي روحا تهلك أنفاسي، الوحدة قاتلتي ونهايتي حتى أصبحت أعيش في ازدواجية أمرأة ".

انطلقت حيث فرشاتها تُملي بواسطتها أعباءها وهواجسها كما في كل مرة، التعابير اللونية دعامة لوجودها ومنها تستمد البقاء، بأناملها تصنع وتدوّن الحدث وكلما أمسكت بالفرشاة ابتسمت لذكريات لن تنطوي أبدا:

-" لكني مبتدئة فقط وكيف تُريدني إنجاز ما بدأتهُ بهذه السرعة يا (حازم) ؟"

- " بل أصبحتِ استاذة تستطيعين تحويل الألوان إلى قدرة محسوسة بها لغة خاصة مميزة، بلمساتكِ تصبح الوجوه ناطقة ... هاتي يدك .. الى هنا .. جسي نبضات قلبي المشتعل، صدري يحترقُ .. يتخبط .. لا يستطيع مجابهة أجمل أمرأة وأجمل أنامل .. لو تعيدين النظر إلى تلكَ اللوحة ... ".

وعندما أدارت بوجهها تتأمل المكان غافلها بقبلة ساخنة طاف بشفتيه المحمومتين يُلهب عنقها فشفتيها وما كان منها إلا الإستسلام، ترتجف كطفلة مدللة في حضن عشيق تعلم أنها ستفقده في يوم ما.

- " أخشى الاستسلام لكَ ".

- " ولمَ! ألستُ حبيبك؟ لا تفوّتي لحظات لا عودة لها بالتردد ".

ارتعدت بين يديهِ كذبيحة، مُغمضة العينين، كان قد شغلهما بلثمة فما تبقى لها دموعٌ، يبتلع من رحيق الهوى ويمتص بقايا حُزن، وبلمسة حنون يختلسُ بعض الدفء من عنقها يهمس بصمت في أذنها:

-" لن أدعكِ تفلتين مني ".

يغني لها بصوتهِ الرخيم، تشاركه الغناء لأغنية أحبها ورددها دوما.

تتناغم الألحان بحلى اللازورد مكللة بطرحة بيضاء, تنتهي أطرافها بدانتيل الحب والفرح.

تُغرقها الذكريات، تخترقها الأصوات وتتمنى للحقائق لملمة النشوات المُشردة. تتوقف لبرهة عن متابعة عملها تسرد لنفسها أحداثا سعيدة مغرية. تقف بحزم أمام الآلام والضعف البشري المشروط فالعجز الخائر والانسحاق ... همسات الماضي تعيد إليها السلام النفسي، الطمأنينة، الإنتظار ... فالحلم ...

أيقنت أن روح حبيبها تحوم حولها دون اكتراث، بحثت عنها في أركان الغرفة، حدس خفيّ أدى بها الى الشّك في أنهما سيلتقيان في هذه البقعة الغريبة، فقررت استئزار الشجاعة والإنتظار...

* * * *

أشاح حازم بوجههُ عن نشوى، يناجي الأفق البعيد، ينادي حتى ليصل صوته إلى أطراف الكون:

- لقد أدمنتُ عشقكِ يا (زينة) وأدمنتُ الحياة من أجلكِ فقط, ولا أي امرأة في هذا الكون يمكنها سلبي منكِ ، سأحيا من أجلك فالحب أقوى من الموت ...

تجيبه نشوى قلقة:

- أرجوك يا (حازم) ألا تتخلى عني .
- نحن في دوامة وتلتصقين بي, ألا تهابين الموت؟
- لا أهابهُ، سأموت بمعيتك، دعنا نواجهه معا.
- لن اواجههُ إلا بمفردي.

- لمَ تكرهني كل هذا الكره؟
- بل أحبها كل هذا الحب.
- كل هذا الحب لأمرأة واحدة! أحسُدكِ يا من تكونين، أشعر وكأنها موجودة هنا معنا.
- نعم إنها تلازمني طوال الوقت.
- لم أرها قط .
- ما اراه لا تستطيعين رؤيته، لقد عبرت حدودا، أتت من بلاد الشمس، استطاعت الترنح في جندول الزمان والمكان لتصل قلبي المحروم تنعشهُ وتمنحهُ الحياة ... أخرجي من حياتي ...
- وإن خرجتُ إلى أين سأمضي !؟ ...
- إبقي بعيدة ولا تقتربي مني .
- لكن بك أحتمي، لماذا تقسو عليّ وعلى نفسكَ؟ لن يكتب لنا النجاة ولن تلتقي أبدا بمعشوقتكَ، دعنا نتلمس الحياة بقطرة حب يمكنها مساندتنا ...
- ويمكن لهذه القطرة استدراجي إلى الإنتحار.
- ولمَ تنتحر فالهلاك أصبح وشيكا.
- لن أدعه يهلكني قبل تحقيق مآربي، سيتحقق حلم اللقاء.
- يا لك من لئيم متمرد.
- بل أتمرد على المتمردين أمثالك, ولئيم على من يريد سلبي مذهبي.

ويبكي أمامها، تحدجه بنظرات مستغربة:
- أتبكي؟ أعتقدت أن البكاء من اختصاصنا نحن النساء.
- أبكي الأرواح الضعيفة، الضياع وحبيبة أحبتني رغم ضعفي، عيوبي وانكسارعزائم الراحلين قبلي، أتمنى لو كان لي أكثر من يد، لو كنتُ عملاقا، لو استطعتُ تحرير الغرقى من الظلم أولا والغرق ثانيا. لو كنتُ غير أنا لما استطاع الموت عناقهم برذائلهِ.

أحس (حازم) وكأن نشوى تسلبه حصتهُ في الحياة، وتأخذ نصيبه في البقاء، لن تكون هي سبب محو الذكرى من ذهنهِ! ولن يحتمل قهقهة الفجور أمام انات الحرمان. ظمآن للماء ويمتنع من ارواء نفسه وروحه، لقد استطاعت بناء اسوار الكراهية بينهما، تجاذبه إليها، إلى عدم اليقين، تكسر صموده وتحط من عزائمه، تلقيه في زوبعة الإنحطاط إلى الخطيئة المقصودة وتخرجه عن صمته بسؤال ملحٍ.
- أليست الطبيعة الإنسانية هي التي تُحلل لنا التزاوج؟
- نعم ...
- إذا ما الذي يمنعكَ من ممارسة قانون الطبيعة ؟
- شيئان.
- ما هما ؟
- الله و... الإخلاص، أتدركينهما!؟

سخرت نشوى من كلامه، هزت منكبيها غير مبالية، أرادت الإستمرار في الحديث أسكتها. أثارت حفيظتهُ، بدا كنسر جارح فاقد جناحيّ التحليق، تمنى لو استطاع الإبتعاد عن المرأة الشيطانة، تذكرهُ بالأفعى التي غررت بحواء وربما لم تكن هناك افعى، هي حواء نفسها الأفعى, إنه ينازل الحقيقة الآن، يمسكها متلبسة، يا للغرور المزيف الذي دام عصورا تلو العصور! يا للمأساة الكبرى لأجيال تتيه في زحمة الضياع بتعلم الحقيقة المشوهة ...

لو تدري الأزمنة السبيل الخطأ الذي يجرفهُ القدر الضائع ... هذا هو السّراب ... طالما أراد معرفته ورؤيته وها هو يتخبط داخلهُ ومع من؟ مع حواء! وأينَ؟ على جزء من مركب وسط بحر هائج، يتوسط محيط لا نهاية لهُ. متى ستنتهي المسافات! وهل للمسافات نهاية؟ حتى المسافات

تتيه ولا تصل النهاية! وربما هناك عدة نهايات لهذا الكون اللعين! نهاية تبتدئ في نهاية أخرى وهلم جرا ! لو يدري كم من النهايات توجد لهذا العالم ! لا يدري، ربما بقدر عدد افراده! يفترض أن يكون تعداد الأفراد ... يا لتعاستكَ يا (حازم) لن تبلغ النهاية أبدا!
تحاول نشوى مرة أخرى:

- لمَ تكرهني أنا بالذات؟
- وهل يوجد غيرك هنا!؟
- اذا لمَ لا تحاول تقبيلي؟ نحن إثنان تائهان، الغرق محتم علينا، دقائقنا معدودة وترفض انتهاز فرصة لن تعوّض ..
- عن أي فرصة تتحدثين وهل الحياة لا تكتمل إلا بالممارسة!؟
- نعم فهي اللذة الوحيدة.
- من قال لكِ هذا الهراء!؟
- زوجي علمني ألا أضيّع الوقت.
- إذهبي إليه إذا. ماذا بك يا أمرأة ألا تصمتين أبدا!
- أتريد صمتي؟
- على الفور، إنكِ تفسدين كل شيء حتى الأحلام .
- أليس لديكَ إلا الأحلام !
- وما الذي تملكينهُ أنتِ؟
- لا شئ.
- ألا يكون الحلم أجدر من اللاشيء!؟

صمت (حازم) يكظم اللوعة والحسرة، خرجت زفرات قاسية استقرّت على باب شفتيه الجافتين, يصرخ في أعماقه إلى عمق الوساوس التي تخللها الظلام الدامس:

- نحن إثنان. مات الأول وضاع الثاني .. والباقي نحن إثنان ..

تقاطعه:

- إنكَ تتكلم عني إذا!
- واحد أخرس والثاني يتكلم، معلقان بأطراف الغيم ...
- يبدو أنكَ تهذي.
- واحد ثعلب .. والثاني أرنب .. واحد مسجون ويتعذب ..
- إننا الإثنان مسجونان.
- أصبحنا ثلاثة ... والثالث ... لم أعد أعرف اسمهُ ...

ضحكت نشوى ضحكة بلهاء أدت بهِ إلى الخروج من نشوى الإستغراق فيستطرد:

- نحن إثنان .. وأنا لوحدي ...

* * * *

وهل للعِفّة مواقيت!؟ بهدنة الحرمان استقامت سيرتها ففارقتها الخطيئة، لم تعد هي ولا الخطيئة قيد الإعصار ..
وهل أبقت على حصتهِ في الحياة !؟
وهل زال الشرّ عن المركب المُحطم؟ العِفة واجهت الموت فَغلفها غير مرتدعٍ...ما أصعب أن نعيش أعفاّء!

استفاق حازم صباحا، لم يجدها، تلفتَ كأحمق يبحثُ عنها، أين يمكنها أن تتوارى! يا للمهزلة، كم خطّط لشنقها في منامهِ ...! يعقد الحبل ... يُجهزهُ كمشنقة..لها..يجهز عليها..أراد التخلص منها...! زاحمتهُ حتى في أفكاره وما يجيش في بواطنه، أطّلعت على أسراره، انهمرت عليه كالماء الجارف تريد سحقهُ وسحق كبريائه.
- " يا لعظمة الكون! انهكني الحلم حتى اهتزت من حولي جميع الأركان تصرخ وتولول، تبكيني ...ترجوني عدم الإقدام...! ويحي الحبل ما زال معقودا!"
ربط نفسهُ بهِ، ربما هكذا يضمن عدم السقوط الى الأعماق، الحيتان تتغذى الآن ..لن تدع الوليمة بشأنها فأخذتها معها حتى الهاوية، معداتها الخاوية، لو كانت نشوى موثوقة لهان الموت وقلّت بشاعتهُ.. لبقيت على الأقل تتمركز في تلك المساحة الضيقة!

يمكن الوثوق بالعمود الوحيد، يحتمل الثقل...نعم الواحد أخف من الإثنين. لم يستطع الوثوق بها لذلك لم يوثق نفسهُ معها في العمود نفسه، أو ربما لم يستطع الوثوق بنفسه الضّعيفة. إنه ينهار والإنهيار أول الهزيمة وآخر الأوجاع :
- أين الثعلب؟ أين الأرنب؟ أينَ المسجون وأينَ الذي يتعذب؟ أين الأول وأينَ الثاني؟ كل ما أخشاهُ أن أكون أنا الثاني! لا أدري...

يبقى وحيدا، يضحك للقدر ويسخر من نفسهِ، ربما يحترمها، يستذكر لأول مرة حوارا قادهُ إلى حماسة ثورية ضد الفسق، لولاهُ لما غادرت الراقصة العالم عفيفة تقية! لولاهُ لما دخلت الجنّة! لولاهُ لما اختارها الله ومسحت عن جبينها جميع خطاياها! لولاهُ, ولولاهُ, ولولاهُ! ولولاهُ أيضا لما ماتت قهرا! لم يمنحها اللّذة الجسدية الأخيرة! لم تترك بصمة واحدة في حياته، نعم، لم تستطع التأثير على ضعفه، ليس لأنهُ قاومها بل العكس بسبب ضعفه ويأسه وإحباطه، أراد لنفسه عقابا، لنفسه البائسة، ما همّهُ إن ماتت عفيفة أم لا، ساقاها الجميلتان أسالتا لعابه، يداها الممشوقتان أرهقتا أشواقهُ، فخداها البيضاوان أغرقتاه لهفة, وصدرها النافر غمرهُ بكاءً، ماذا لو مررّ يديه.. لو لمسهما.. لو أزال إله الخير والبر عنه لبرهات! أليس رجلا فيتحول الى كبش فداء الإغراء! لماذا يقسو على نفسه كل هذه القسوة! هل داهمهُ صفاء التعقل! ألا تلعب المرأة الجميلة دورا في حياته !؟ وهو الأعزل الوحيد ...أم خشي من رجوع أحدهم! يا للسخرية! لن تراهُ العيون وهو واثق من ذلكَ ولن يثيره سوى رؤية أحدهم حيّا يرزق. بحث كثيرا بين الأمواج، صرخ وبأعلى صوته ينادي مكررا:
- هل من أحد يسمعني...؟ أنا حازم، هل يسمعني أحد...؟ أصرخ اذا كنت حياً أستطيع سماعك... آلو... هل من أحد هناك...؟ اصرخ اذا كنتَ هناك!
ويعيد الكرة وشاركته نشوى قبل اختفائها:
- آلو...نحن نسمعكم...هل من أحد حيّ ولا نراهُ؟...هل من أحد هناك...؟

* * * *

غزو العدالة وفتكها بالبشرية أمهر من أي شيء في الوجود، فلا سعادة ولا حياة رغيدة بعدمها، تستبيح الظلم وبمخالبها تقتحم الإنسانية، تجرّد قدسيتها، تخترق البائسين والضعفاء.

تظهر وكأنها سوق في مزاد علني، تساوم، تبيع، تقتني وترخّص.
لم يكن هناك غيرها، وهي جميلة صافية كصفاء ينبوع ماء، ماذا حصل لهُ؟
ويكلم نفسه:
-" لمَ لم تستطع الإقدام على وجبة جاهزة وتُجهز عليها قبل أن تجهز عليها حيتان البحر؟ نعم الجواب واضح جليّ ... تعاقب نفسكَ ، تجلدها وتعذبها!"

صرخ يطلب وجه السماء:
-" يا رب، لا أطلب الخلود مثلما طلبهُ جلجامش، لا وألف لا، ولماذا؟ وماذا بالخلود إلاّ العذاب!".
- " ماذا اذاً يا حازم ؟ لمن تطلب النجاة ؟ ومن أجل مَن؟ ألست الرجلُ الذي...".
- " أي رجل أنا ؟ ".
- " إنكَ تفقد العزيمة رويدا رويدا، أخشى أن يداهمكَ الكسل، فأنا أكرهُ الكُسلُ ومن يلبسُ صفاته، يظهر لكَ في حلّة طاهرة جليلة لكن ما تلبثُ تلك الحلّة وتنقلبُ إلى كفر ووعيد "
- " إنه الحب القاتل، أبحر عبثا أبحث عن حب خالد، لا أخاف الموت بقدر ما أخاف عدم تحقيق حلم اللقاء، تداعبني نسماتها الحائرة فتحرقني شمسها الغائرة، تغمرني الأمواج المالحة وأغرق بعذوبة شفتيها، تُبللني، تعصرني فترديني قتيلا في عالم بعيد عن عالمها".
- " اذاً أنتَ ممن يستحقون الرّثاء!؟ ".
- " الرّثاء !؟".
- " ألستَ من غلبهم الهوى واحترقوا بناره؟ مسكين أنتَ، ياما في العشق مساكين!"
- " تهون علي نفسي، لقد كنت في بيتها ولم أستطع ملاقاتها ولا العودة؟ أرأيتِ يا نفسي أشقى منكِ، كانت قريبة مني، تركت سماتها الخالدة هناك ورحلت, لو أدري الى أين ذهبت، ربما رحلت إلى حيث التلاقي؟".
يصرخ بأهلى صوته:
- يا أيها "العدالة" لو يتاح لي أن أنتحل الشمس وأرتقي أوج سمائها، أنهم من أصفى ينابيع الكون واقتطف أندى مفرداته الخفية لأعيد اليه توازنه، جماله وبراعته...واذا لم يكن لي ذلك، فلا أقل من أن أفضح أسراره حتى يندحر الظلم وتنهار آخر قلاعه وأسواره.
صرخ يهجو العدالة ويرثي نفسه حتى فقد صوته وعاد يكلم نفسه:
- " ولمَ لا أكون محظوظا! ربما كان العائق خيرا، لا ترثيني يا نفسي بل افتخري بي، فما يلازم أفكاري إلا دفءٌ وجلالٌ ".

* * * *

تمر الأيام باردة و(حازم) ملتصق بالعمود، يجول بعينيهِ الأطراف بعيدة الزّوايا، تنغلق على نفسها اغلاقا مُحكما، تعلو مع هبوب الريح وتنخفض بهدأتها، تحط من عزيمته تارة وتارة تتوقف إرادتهُ مع ارتفاع الأمواج فيفقد التقويم بل يتوقف عن التقويم، يستمر مع تعاقب اللّيل والنهار، لا يدري كم من النهارات مرّت عليه وكم من اللّيالي يعاودها الظّلام، أحصاها بداية وعندما أحس بالضياع أصبح ينقش علامة على طرف المركب بمديته، غريب أنه ما يزال يحتفظ بها، لقد فاتهُ تأريخها وما بقي من التاريخ ذهب بمعية الراحلين ...
لم تتخل عنه الهواجس:
- لن استسلم وقد طال نزاعي مع يم تغمرهُ سعادة وشماتة، شهداء نحن وضحايا, لن أجعله يسعد بتعاستنا، يهزأ من مصائبنا ويسخر من وجودنا.
لمَ صمّ أذنيهِ، لا يريد سماع عويلنا، دعونا ليبتلعنا بلهيبه البارد وأول من أتيناهُ شاكين نار العبودية.
كيف أرثيكم يا أحبائي وقد انقرضتم في ساعة؟ وهل همّهُ عدم تنكيس راياتكم؟

قرر عدم البدء في التقويم إلا من ساعة اللقاء فكل ما يمر عليه الآن في عداد العدم، لا وجود لهذه اللحظات في حياته، لا يخشى فقدان التقويم بقدر ما يخشى عدم تحقيق الهدف المنشود، الهدف واضح جليّ لكن السبيل إلى تحقيقة!

لا سبيل سوى الإنتظار، انهُ ينتظر بينما التقويم يعمل برتابته المعهودة، لا يتوقف أبدا، ربما هو الذي توقف لكن كل شيء حوله يستمر في الدوران وهو يدور داخل كل دورة كدوامة، بعد دورانها الغرق الأكيد، الغرق داخل العمق الأبدي...

التقويم الجديد لم يبدأ، إنه يتأخر كثيرا وحازم بانتظار بداية لحظة التدوين، أصرّ على ذلك قائلا:

- " لحظة ولادتي تبدأ عندما تسقط عيناي على مالكة فؤادي...".
- " ما مضى لا يحسب أبدا هو الآتي الذي يبدأ به".

بدا كمخلوق منشطر عن العالم، يقع في داخل الشّطر، داخل برزخ، بين الماضي والحاضر، بين البحر واليابسة، يتأرجح بينهما، يتهاوى بين جسرين عظيمين، فاقد خيط النجاة. التوازن ضروري جدا في هذه اللحظات من دونه يتبدد كل شيء، الماضي بمتاعبه والمستقبل بغيبيتهِ والحاضر المجهول...

-" لماذا تغلبت عليكَ نزعة البقاء؟" يكلم ذاتهُ.
-" البقاء ولمَ لا أبقى وهل هناك أثمن من البقاء".
-" ألم تنهككَ المصائب !؟".
-" لا أدري تارة تنهكني وتقوضني، تُضعف عزيمتي وتارة تثبت بي حب الحياة والتشبث بها".

ما أقساكَ يا إنسان! تقسو على نفسكَ بالبقاء بقدر ما يقسو عليكَ القدر،ألا تغيب عن روحك أبدا!؟ أكثر ما تحافظ عليهِ، يا للعظمة الالهية، تحارب الجّوع والعطش، التيه في العدمية، الطبيعة تحط من قواكَ من اجل إفشال وجودكَ، تقاومها بروحكَ المنهارة، تأبى الاستسلام، لا تعترف بالقوة العظمى إلا عندما ترى روحكَ تنسلخ عنكَ، تُردي جسدكَ الواهن كجيفة في كل مكان يزاوَل فيه التقويم لغة الغربان، تغادر والتقويم يستمر، يشطبكَ بعملية طرح بسيطة ويكتمل مُجددا من دونكَ, تفقد الزمن والزمن لا يفتقدكَ، يدوس عليكَ مغادرا وعيناكَ تناشدانه الرجوع، تراهُ ولا يراك، تحسهُ ولا يشعر بكَ، تراقبهُ حتى انطفاء آخر خلية في جسدكَ، بمرارة تتراجع عنهُ ويسبقك بكل مهارة. يستوطن بكَ كره الوجود، تكره وتحقد وربما تحاول الانتقام، تفكر بسبل غير مشروعة تنظم بها غاراتكَ، سبل مقيتة على الإنسانية سُبل تداهم الواقع باللاواقع، صِدام الحياة بالموت، لقاءات غير مرغوب فيها، تجلب الاشمئزاز والخوف، تستبيح لروحكَ الهائمة الانضمام الى فئة كنت أنت من قبل تتهرب منها وتخشى اقترابها، أتدري ما هي؟ هي فئة الشيطان التي باتت تزاحم الإنسان في أرضه وملكوت استقراره! تبحث وإياهم عن الأبدية المغتصبة التي تُركت في الوجود، تحاول التكرار خاضعة لرغبات تُعارض رغبة صاحب الجلال...

يعود الى حواره مع نفسهِ:

-" ما بالكَ يا حازم تنشطر عن الوجود ؟".
-" بل الوجود لم يعد يرغب بي, هو الذي ينسلخ عني".
-" بكَ تقلبات الفكر، العقل والروح!".
-" الفكر !؟".
-" نعم، لم تعد تفكر بمعشوقتكَ، أين نهجكَ في الحب؟ بماذا تستبدلهُ؟".
-" العقل!؟".
-" نعم، تدع الهلوسات والهواجس تأكل منهُ !".
-" الروح!؟".
-" أين تركتَ روحكَ، لا تدعها تذهب منكَ، إنكَ تتداعى أمامها, ستهزمكَ!".
-" لكني ضعيف منهكَ لا استطيع الإستمرار".
-" أتستسلمُ بعد كل ذلكَ العناء!؟".
-" اطلب الموتَ فهو أيضا أبدي، ألا يشبه الحياة الأبدية".

-" لا اعتقد، الموت هو الفناء والحياة هي شىء مختلف هي ...البقاء..".
-" هل أبقى على حب عالم مجنون تافه، ما أحوجني الآن الى الموت، للراحة، أريد الراحة فقوايَ لم تعد تحتمل كل هذا العذاب".
-" أيستبد بكَ التفكير بالموت إلى هذا الحد! كما استبد بكَ الطاغية في يوم من الأيام؟".
-" الطاغية!؟".
-" نعم أنسيتهُ!؟".
-" لم أنسَهُ ولن أنساهُ أبدا".
-" اذاً !"
-" سأقاوم، نعم سأستمر حتى النهاية".
-" لا تنسى هدفكَ المنشود، لماذا أنتَ هنا ومن أجل من؟".
-" لقد أخفقتُ في حلم مزدوج لأرى نفسي داخل هوة سحيقة لا تحتمل حتى الأحلام".
-" بل ما زلتُ أرى فيكَ القوّة والعزم".
-" لقد بنيتُ مدينتي على أنقاض وأشلاء، تزاحمني الرّيح على هدمها، تُغير عليّ بألوانها عقدا من الزّمان، تتوارى خلف ابتسامات الحقد والخبث، تسرق أحلامي وتدس سمّ الغضب في عروقي، تسلبني جدول زمني، تنهكُ توازني، تساومني على الخير والشرّ ولم يبقَ لي أي كيان".
-" يا لسوداويتكَ يا حازم! ألا تبدو كالمهزومين؟ ".
-" لم أعد أنتمي لأهل الأرض, وكائناتها لم تعد ترضى بي، سحابة غادرة تأبى استقبالي، لم أعد آمل اللّقاء، تغوص قدماي بدوّامة سحيقة، جميع أبواب النجاة أغلقت في وجهي، لا أدري الى أين تكون وجهتي بعد الآن، هل أبقى مقيدا بهذا الحبل على قطعة خشب تائهٌ وسط أمواج صارخة؟ وما عساني أفعل غير ذلكَ؟ هل ألقي بنفسي وسط الظلام وأنهي معاناتي؟ سيقولون انتحر..! يا لغبائي ..! من الذي سيقول!؟ ".
تفحص بعينيه الجريحتين الفضاء الشّاسع، أمِلَ أن يقع نظره على شىء ما، ما يقع نظره عليه متشابه. لم يدرك سبب تذكره لجنازة أحد جيرانه وهو صغير بينما يدركه صوت أمه منادية:
-" لا تذهب اليهم فاليوم لا يستطيعون استضافتكَ ..."
تجمّع كل أهل الحي في بقعة واحدة .. ساحة دارهم الواسعة لا يتوسطهم أي شىء, أراد معرفة سبب التجمهر المفاجىء لكل هؤلاء ومن أين جاءوا, خيّل اليه أن الحيّ فارغ من ناسه بسبب عطب ما، أي عطب؟ لم يدرِ....
دخل المكان خلسة حتى إحدى غرف البيت المكتظ. كان هناكَ أحدهم، بمفرده، ممدّدا على مصطبة بقدر حجمه، يداه مربوطتان وكذلكَ قدماهُ مُسّكتا بحبل غليظ، تقدم إليه، جسده أيضا مربوط بالحبل نفسه، ملابسه تشع بياضا, وجههُ شاحب متجمد، توقفت أنفاسه في مكان ما، أستدار بقدميه الهزيلتين يبحث عن الأنفاس المفقودة، ربما علقت على جدار من جدران الحجرة البيضاء، كل شىء أبيض في أبيض لا يرى سواه. كم كره الرائحة المُتسربة من ذلكَ المتروك وحيدا، تنفذ الى أعماقه حتى اليوم, ترى ماذا يكون هذا الشىء!؟ من أين أتوا به؟ تفحصهُ ليتعرف عليه، لا يتحرك ولم يرَ شعره! سأل نفسهُ:
-" لمَ يوثقونهُ بهذه الطريقة؟ وكيف لهُ التحرك إذا استفاق، عيب عليهم تركهُ ممددا وسط غرفة وحيدا !".
السّكون يخيم حتى على ضجيج المجتمعين، كأنهم ابتلعوا ألسنتهم، يجلسون مطأطئي الرؤوس، لا يتنفسون، كأنهم الأصنام. إحدى النسوة جحظتهُ بعينيها الحمراوين تنهرهُ للابتعاد، وبصوتها الأجش أمرتهُ:
-" أغرب يا ولد من هنا، اذهب عند والدتكَ، هيا ..."

ركضت خلفهُ حاولت ابعاده فما كان منهُ سوى الهرب منها الى حيث الرّجل الممدّد بملابسه التي تشع بياضا، حاول إيقاظه، نهرهُ بصوت منخفض:

-" يا عم خبئني أرجوكَ ستقتلني هذه البدينة القبيحة ..."
التصق به، لمس يديه الموثوقتين، حاول فكهما... حاول مرارا ولم يفلح... اهتز جسده الهامد... هزّهُ بيديه الصغيرتين.. استطاع ذلكَ...نعم شارفت الجثة على السقوط، اختلّ توازنها...إنها كقطعة خشب...يابسة كلوح خزانتهِ المصقولة..!:
-" يا الهي ما هذا الشيء الذي أراهُ وما هذا الذي ألمسهُ!؟".
أيقن أن الأمر في غاية الجدية، ابتعد وابتعد وابتعد حتى التقت عيناه بتلك البدينة، عيناها تغمرهما النيران ولسانها لهيب كلمات وصراخها بركان من عويل...

من سيدرأ الخطر عنه غير والدتهِ، استفاق في حضنها يلهثُ كالمجنون ويرتعد خوفا:
-" يا أماه لقد رأيتُ ميتاَ ...ميتٌ في حجرة ما... لدى الجيران...لم أعلم أن الموتى يسكنون الحجرات...!".

لن يستقبل (حازم) الموت وهو موثوق، سيحرر نفسهُ قبل مجيئه نعم لن يدعه يطرق بابه وهو مستسلم، أبدا... ماذا يفعل اذاً؟ أيرفع راية بيضاء على ذلك العمود؟ ربما يراهُ أحدهم فيأتي لمساعدته، لكن الراية البيضاء أيضا تعد استسلاما، وقد قرّرعدم الاستسلام!؟ ماذا يفعل!؟ أينتظر... ألا يُعدّ الانتظار استسلاما!
وتحلّ عاصفة أخرى، تتحول النجوم وتحجب الغيوم عنهُ آخرها. رأى (حازم) نفسه بطلا مغوارا يشهر سهامه غضبا نحوها :

- إلى أين ترتحلين أيتها النجمة الأخيرة؟ إلى الأرض؟ أتتركين السماء المكفهرة، دعيني ألمسكِ قبل المغادرة، ألا تسمعينني يا (إنانا)[1] يا ايتها الآلهة الجميلة التي تأخذين السماء مقرا لكِ؟ هل ستهجرين مملكتكِ زمنا طويلا والقمر عابس يولول مختفيا، يذهب خلف الشمس المحبطة. أكيد تشعر بالخجل والعار، تودّع العالم ويسأم الليل انتظاراً، يشتاق الى رؤية المياه البلورية فيراها دائمة السواد.
  يزيد عنفوان البحر, يهتاج متألما فزعا يبحث بأمواجه العالية عن مليكته، يزمجر مناديا، هديره شاكيا ويغرق غرباء أتوا اليه من الأرض ومن عصر مغاير. أعتبرهم منتهكي حرمته وقدسيتهِ.
  بات مقفرا بغياب سيدته الأولى واستلاء رجال غرباء عليه بلحاهم المبعثرة المبللة. أخافه تضرعاتهم, يغمض عينيه وبلا رأفة يحاول إفناءهم فيفنون على سطحه بأجسادهم المرتعدة، يصرخ موجا يقرّب الأضاحي بأمواجه العالية ورياحه التي ازادت خفقاناً، يطلق صيحات موبوءة يرثي (إنانا) التي أغتصبها (شوكليتودا)[2].
  السماء أفترشتها سحابات الحزن، تنادي عاصفة بأعلى صوتها رجوع مليكتها إليها، فيجفل الطائر خوفا، يرتعد البحر وتمطر السماء بكاء ولعنة، تقسو على العالم بغيابها. لقد خانتها ساقاها وتاهت ترتع بالأرض الخصبة الجميلة, ولم تعلم ما ينتظرها تحت أقدامها, بينما تدمع عيون مغتصبها حبا وولها عندما رأى خصرها الرشيق الأهيف عاريا.
  لماذا تبكيها السماء بدموع غاضبة الآن بالذات ونحن سائرون في بحر التيه نحاول الفرار من الدنيا والتاريخ يلاحقنا؟ العصور تركض خلفنا وتطلق مجددا مأساة عظيمة كالطوفان .

* * * *

[1] (إنانا) : الهة الحب والحرب وسيدة السماء ابنة (نانا) وهي زوجة الإله دموزي لدى الأساطير السومرية.

[2] (شوكليتودا) : الانسان البستاني الذي اغتصب الالهة (إنانا) عندما نزلت من السماء فغطت نوم عميق . لدى الأساطير السومرية.

هل ستنقطع الدّمعة أخيرا أللدّموع جذورٌ لا نهاية لها!؟

وسقطت الصّرخة على صخرة ما بالقرب من الشاطىء، لقد وجدت لها الدموع أخيرا أرضا تلتصق بها، حرارتها وهبوة لوعتها، مناورة الأمواج تنهال عليها بلا نهاية وبلا تردد، تعزّي الذي راح والذي ما هو فيه وربما الذي سيأتي، تُسمع الصرخات الدفينة بصداها المُدّوي، يائسة تركن رأس القلب، الأوجاع تتبدل الى مرارة اليقين، تعلن عزمها الانسحاب وأخيرا لتجابه حياة جديدة مجهولة. شيئان اثنان يستحوذان على عقله، المجهول والألم...

تعلو الضحكات الهستيرية، ضحكاته لا يشبهها أي ضحكات، مجنونة مخبولة تُجاهر سطح الأرض المجاور، يدور حول الصّخرة يتمتع بحرية النجاة، تغوص قدماه العاريتان داخل المياه، يتخبط داخلها يلعنها فيدوسها بحقد ، يشقهما عائدا الى اليابسة وكأنه يطأها لأول مرة في حياته، يقبّلها ويمسحها بيديه ولو استطاع لقام بقلبها وتقبيلها من جميع أطرافها، انها صخرة على يابسة تغمرها المياه لكنها قائمة على شاطىء ما. يراقصها، يدوسها يدور حولها ويلثمها وهي صامدة . يريد قميصا يلّوح به الفوز، علامة الانتصار. طقطق أنامله بعضها ببعض، حتى هي ذابت فرحا ومسرّة فتفشى بها حب التلويح لتجتاح الكفين تصفيقا، فصفيرا يرجوان خصرا يخضع اهتزازا لفرحة عارمة مجنونة. قهقهاته تُجفل حتى طيور السماء، تتسمر كصنم تتابعه وتشاركه المسّرة، الضحك يمتزج بصراخ من الأعماق فتوثق السماء بالبحر.
تراقصه الأسراب وتحيطه بجموعها، تقف قريبة منه على سطح الماء، تصفق بجناحيها، يتناوب كل طير بالرقص معه، يدور معه دورة واحدة يأخذ مكانا على كتفه، تمتلىء الأجواء بالأسراب البيضاء، تأتيه احداها برسالة شوق مؤجلة، تحملها في منقارها وتأتي أخرى بخاتم زواج وأخرى تضع على رأسه اكليل ورد, وأخرى تسقيه قطرة ماء, وأخيرة تهمس في أذنه قائلة:
- هذا الخاتم وأكليل الورد ل(زينة) فهي بانتظارك، استلم مني رسالة بيضاء، خط ما يجيش في قلبك وسوف أسلمها إياها.

- لن أكتب سأصرخ بأعلى صوتي ربما تسمعني فتأتي لتشاركني فرحة الإنتصار.
  ما أصفاكِ يا ذا الحياة! ما أجملك وما أبهاكِ!ما أعظمكِ! قبلتِ بعاجز فاقد الوعي أنهكه الإعياء.

ما أصغرني أمامكِ وما أعظم داؤكِ! هو داء بلا دواء، يستكثرون علينا عشقكِ وعبادتكِ! لن أفكر ومنذ الساعة في الموت أو الفناء.
- أحب أن تكتب لها، اقتلع ريشة مني وخذ قطرة من دمي واكتب.
- أتريديني أن أكتب بدمكِ؟
- نعم .
- ولماذا؟ فأنت الطير الودود.
- لأني أعتقد ان لم يمتزج الحب بالدم فلن يكون خالدا.
- ولمَ لا أمنحها من دمائي؟
- أمنحكُ مني تكفيرا عن جميع الغربان .
- الغربان ؟
- نعم، أنسيت ماذا فعلوا بكم!

لم يسمح للذاكرة بأن تأخذه الى بداية الرحلة التعيسة، لا يريد تذكر الأم فطيمة التي هلعت كلما لمحتهما تجانحان السماء، سيتذكرها عندما شجعته على ملاقاة فتاته قائلة:
- "لا تسمح للشوق بداخلك أن يخبو، دعه يتأجج كلما خبا".
- "عشقي لزينة خالد".
- "لا تدع الأيام تمضي بكَ الى أخرى مهما كانت الظروف".

- "سأقتل الأيام قبل أن تقتلني ان نسيتها".
- "أخشى من الأيام يا حازم".
- "لا أرى أملا في النجاة، سوف تقتلني الأيام، أشعر بذلك".
- "لا تسمحي لليأس أن يتوغلك يا فطيمة، أطفالك ينتظرونك".
- "أتعتقد ذلك"؟
- "طبعا، الطفل لا ينسى والدته أبدا، مهما كانت الظروف، أذكر والدتي في كل لحظة، هي الحبيبة ، المعشوقة والوطن".
- "من أي وطن أنتَ"؟
- "لا أدري من أين جئتُ! لكن البداية السعيدة ستكون في وطني، سآخذ (زينة) اليه ونبدأ من جديد".

ولم ينسَ هول ما رآهُ من الطيور الجارحة عندما حامت أياما تنهش طرائدها من الغارقين، امتلأ البحر دماء، افترست قلبه وهو ما يزال حيّا يرزق، كلما انتهت من جيفة تأتي على أخرى وكأنها في سباق، تزدحم بها الأجواء, تنشر الرعب بنعيبها المتصاعد، مشت أسرابا على سطح الماء الذي أمتلأ بأصدقائه الراحلين. كيف له نسيان الإفتراس الجنوني في الإلتهام! كيف له نسيان حركاتها السريعة تعرج فوق رأسه كالصاعقة ثم تحط على بقايا أجساد بشرية! كيف له نسيان آثار الأموات الذي شاركوه أياما الفضاء والحياة؟ كمن يراقب مسلخا يجزء اللحم الى أشلاء، تمزقها مناقير تعلو بها وتنخفض، تقتطع وتمزق.

* * * *

لم يعتد الهدوء، ربما انتهت منه الحياة وربما.. لا يدري! يجوبه الصمت بهدوئه المخيف، يفقد حازم موازين الوّعي، انه في اللا وعي؟ لا يدري أين هو وما الذي يؤدي به الخضوع الى هذا الحد في مجلس جاف صلب بعيد عن الماء!!!
منذ وصوله الشاطىء وهو يهذي.
- أنتِ يا شمس الكون! هل استطعت أخيرا لثم ثدي (إنانا) فاستفاقت من غيبوبتها.
أشتهي لثم فم حبيبتي الملقاة أرضا تنتظرني، أزيح ثوبها عن ثدييها وسرتها، فيرتعد ردفاها شوقا، ستمنحني جسدها ولن تطلق أبدا لعنتها على الكون كما أطلقتها (إنانا) التي أُختلست منها حرمتها. عضوي يضاهي عضو (شوكليتودا) قوة، وعصري يضاهي عصره رُقيا، لن أغتصب حبيبتي وهي نائمة، ولن أسلبها أنوثتها وهي في سبات، سأطلب وصالها عندما تمنحني هي جسدها، روحها، عقلها وكيانها.
سأفرش تحت قدميها الورد وأطوّق عنقها ياسمينا، وأدع حلية ثمينة في معصمها.
لا أملك اللازورد، لا حجارة كريمة ولا ذهبا خالصا. أملك حنجرة تملك صوتا جميلا تطلق شعرا تخضع له القلوب وتتيه في روعته النفوس.
سأطلق لحنا ملائكيا بقيثارتي وأعقد قراني عليها بمنديل عنقي. سأصل اليها بلا رماح أو سلاح، لن أطلب حبها خوفا ورهبة، لن أدخل جنتها بصولجان ذهبي يبهر العيون، ولن أرشوها بسوار أو قيد من الألماس.
حبيبتي ستحمد رب الكينونة على خلاصي من عقاب (إنانا) الصارم الذي سلطته على البشر، لن ترشو الرياح لتأتي بعواصفها فتنتقم، تبحث عن مغتصبها بسطوتها فتهدم الكون حقدا، تطلق لعنة ما بعدها لعنة، توكل طوفانا يشفي غليلها .
حبيبتي أجمل منكِ، جمالكِ الأخاذ حطم الكون وكسر القلوب. ألم تصعقي لمرأى عينيكِ؟ ألم تندمي على فعلتكِ؟ لقد جئتكِ يا (إنانا) منتقما متحديا. لم تستطيعي مني ولم يستطع الطوفان الذي

أوكلته بإغراقي. أتوعدكِ وأعدكِ بأنك ستهدرين دموع الندم دما. حتى لو تغنى بكِ الشعراء خلودا سأبقى حاقدا عليكِ، سعيتِ لتفريقنا وفنائنا وإغراقنا.
لدي حبيبة تضاهيكِ جمالا، سيلتهب صدركِ غيرة، ستعمى أبصاركِ عندما ترينها، إنها أجمل الإناث وأكثرهن فتنة، هي مليكتي وسيكون حضني عرشها، قبلاتي تاج رأسها وأنّاتها لذة الحياة، هدأتها بعد الأنين يكون اخصاب الكون وإثرائه، ستمتلك الأرض كما امتلكت السماء يوما، وكلما استلقت زاد وله النجوم بها، سيكونون أعداءكِ، سيعشقونها أكثر ما عشقوكِ، سيمحون اسمك ويستبدلونهُ باسمها فتكون (زينة الحياة).
لو غضبت السماء مرة أخرى وأتت بطوفان آخر ستورث (زينة) أولادها دنيا جديدة، وكما قال الدين السماوي " الأولاد زينة الحياة الدنيا".

سأشبعها رغبة الوصال، وأرى بطنها الجميل ينتفخ، سأحيطه بكفيّ وألثمهُ بشفتيّ، أطعمها من زرعي فتمتلىء الأرض بالبشر.

سأحيي بها رعشة الوصال كي أجند الأرض بشرا أشدّاء يقاومون لعنة الآلهة وغضبهم، سأدعهم يعتنقون دين الله الواحد فبالإيمان تزول جميع المكرهات.

لقد نجوت من لعنتكِ، امتطيتُ لوحا خشبيا، لم أتخذ صندوقا محصنا مثل سيدنا نوح. واجهتُ الموت وحدي، صارعت من أجل النجاة، راقبتُ عن قرب روحي التائهة وهي تصول وتجول من حولي ألزمتها بملازمتي وعدم مغادرتي، طوقتني من عنقي فأخضعتها بتحدٍ. حاولتِ اهدار أحلامي فكبوتُ مرة لكن بعزمي استطعتُ مجددا النهوض من كبوتي.

يستطيع الناي كسر أجنحة الظلام ، يستمع اليها يستوعبها بوضوح، اللّحن الجريح يهدىء من روعه، يدخل حتى أعماقه، يبدّد حيرته ويلملمُ آماله الضائعة، يقول له انتظر: التوقيت يبدأ الآن.
قلبه يقول لهُ أنهُ قريب، صوتُ خطواتها قريبة منهُ.
علموّه أن النّاي صديق الرعاة في المراعي، ما الذي أتى بها الى هنا؟ وهلا يصمت الموج دقيقة! النغم يتعالى على ضجيجه، عجيبة هذه الالحان! يألفها،أنّسته سابقا بعض ما عانى وآنستهُ تحدي المصير، غطاؤه جاف، يتحسسهُ! يقرّبه الى وجنتيه ويكلم نفسهُ:
- (لا أمواج، رقيق هذا الغطاء ناعم، أتمتع بلمسهِ يمنحي الاحساس بالرّاحة، هل رحل البحر؟ هل أشرقت الشمس مجددا، أصوات الغرقى تلازمني، جروحي تنزف وبداي نظيفتان من الدماء، كانتا مقيدتين ولا وجود لحبل، أين هو؟ لا يجوز الاستدارة لئلا أقع، أنظر الى المدى لا أرى الزرقة، لا يوجد سحاب ، لا أمطار ولا سواد أين الأنجم لا أراها! أنظر اليك يا قمر ولا أجدك! لمَ لا تأخذني اليكَ؟ أنتَ وحيد وأنا أيضا لا عيب من الخوف فجميعنا نخاف، لكن أين الجميع؟ لا أرى سواي، كم من مرة دعونا الشمس لترافقنا فأبت، تنسحب مسرعة وترسل لنا الأمطار الغزيرة بدلا منها، ألا يكفينا مياه بحر هائج كي نمضي دائرة التيه في جو عاصف ماطر! حتى الشمس لم تكن عادلة! لم تأت لتحمينا من البرد القارس ولم تضحي لتدفئة أجسادنا المرتعدة، أسأل نفسي لمَ عبدها الأقدمون وهي عاجزة حتى عن تدفئة الأفئدة الباردة المرتابة).

اقترب منه صياد أنقذه يجس نبضهُ يحاول ايقاذه من غيبوبته.
- هل تسمع لحني يا بني؟
حازم يحدث نفسهُ:
- (يا لغرابة ذلك الرجل، كيف ينسب اللحن له)؟
- هل تسمعني؟

- (أتقنُ غناء ذلك اللّحن)؟

حاول إنشاده بصوته المبحوح فقاطعه الصّياد:

- الحمد لله على سلامتك.
- أين أنا؟ من أتى بي إلى هنا، أقصد متى؟ كيف؟
- لا تشغل بالك، إهدأ، استرخ واستمع.
- هذا اللحن آزر وحدتي وترحالي وهدّأ من روعي .
- من أين جئت وما هو اسمك ؟
- جئت من الأحلام واسمي (حازم)، وأنتَ؟
- إنها حكاية طويلة وعويصة.
- وحكايتي أيضا طويلة وعويصة، جئت أبحث عنهُ.
- أخشى أن تكون باحثا عن الحب الضائع.
- وكيف علمتَ؟
- هذوت به طوال أيام،الحب كامن هنا، فهذه بلاد الشمس بها تتحقق أحلام الأحباء.
- بلاد الشمس! هل أنا على سطح الشمس؟
- لا يمكنكَ أن تكون على سطحها، ستحرقُكَ .
- لو تدري كم طالبتها المجيء فأبت!
- أعلم أنك طالبت ب(زينة).
- (زينة)؟ ذكراها تحرقني! تتخذ مكان الشمس الحارقة! قل لي هل الحبيب يحرق حبيبه ؟
- الغدر من صفات الإنسان، ألا تدري؟
- لا (زينة) مختلفة، إنها من الآلهة! كيف يمكنني ملاقاتها ؟.
- جئتَ تبحث عنها؟
- نعم ألم تقل قبل قليل بأن الأحلام تتحقق هنا.
- نعم قلت, وأنا أتيت من قبلك أبحث عنها.
- وهل وجدتها؟

صمت الصياد واغرورقت عيناه بالدموع و(حازم) يكرر السؤال:

- أخبرني أرجوك، هل بإمكاني أن ألتقي حبيبتي، أشعر أنها قريبة مني.
- بإذن الله ستلتقيها.
- لمَ أنتَ حزين؟
- تذكرني بنفسي، أتيت قبل سنين أبحث عن حبيبتي.
- وهل وجدتها؟

تمتم الصياد وبصوت منخفض:

- نعم وجدتها.
- اذن لمَ أنت تعس؟
- لا شيء، لا شيء، أستطيع أن أدلك على الطريق .
- اذا هيّا.
- اتبعني فأنتَ قادر على السير!

سارا معا، كانت السّماء صّافية, نقطة الانطلاق هي كوخ صغير يحاذي الشاطى. خطواتهما سريعة يتبعانهما خيالان مُترنحان لا يتوقفان ملتصقان .
لن تخطىء الخطوات هذه المرّة فالصّياد يعرف السبيل! لقد زارهُ من قبل، يغتصب المسافات كأنهُ بذلكَ يغتصب الذّكريات...
يوّدع (حازم) الحزن، يُهرول نحو اللقاء، أخيرا سيلتقي بها، نعم لقد وعده الصياد بذلكَ، المهم هو اتباع التعليمات لتحقيق لحظة اللقاء، من الآن فصاعدا لن يستبد به الفراق.

يكسران المسافاتِ، يطويانها تحت قدميهما ويستمران في العدو، إلى اللقاء، لو يستطيع لمسهُ بيديهِ! أو يطويهِ بكفّيهِ! لن يدع الأمل يفلتُ منهُ هذه المرّة .
عند ملاقاتها سيكمل الكلمات الضّائعة، سيعبيء الفراغات الناقصة، سَيملي الخواطر في قصائد تصبو الى الكَمال, سيلملم الآهات المندثرة وسيحول قصة عشقهما الى خرافة تتداولها الأجيال...
- هناك حديقة جميلة على بعد ما من هنا، أنصحكَ بزيارتها أنتَ و(زينة)، يلتقي العاشقون في هذا الرّوض الرائع حيث الأشجار وارفة الظلال، وأحواض الزهر يمرح فيها أسراب الفراش، تجانحها الطيور بأشكالها، يمكنك سماع البلابل وهي تشدو, ورؤية قطرات الماء الخاشعة خلف أشجار الموز، تقطر من ثقوب السلاسل خلف الأشجار, تتوسطها نافورة ماء تحتضن عشرات القطع النقدية، يمكنك نقدها مقابل تحقيق أمنية واحدة ترتجيها، ويمكنك أيضا الشرب من ينبوع الماء العذب.
المكان مقدس فقد قضى فيهِ، وحسب ما قيل، وليّ من كبار الأولياء، هذه المدينة مباركة جدا، تحتلها حدائق أولياء الله الصالحين ويمكنك الإحساس بخطواتهم دائما.

- خطوات للأولياء! لا أفهم؟
- من يطأ بسيطتها يشعر براحة وهدوء، تعتقدها عادية لكن حال توغلك بسهولها ومروجها يكون الشعور مغايرا، ترابها غالي الثمن ونادر، تسرقكَ رائحة البخور ويجذبك نسيمها، تنسيك مآسيكَ وأحزانكَ فتبدو كسلطان ويغمركَ شوق عظيم للتعرف على طيوبها، تدعكَ تطوي المسافات نحو سحر لياليها وهدأة نهارها، تحاول فك رموز روعتها وأسرارها.
- وكأنك تتكلم عن الجنة ولا أرى سوى تربة سوداء!
- أنصحك الاغتسال بمائها، فتحميكَ من أوبئة العصرالفتاكة وأن تشرب منها فتبعد عنكَ الأمراض. إذا أردتَ التمني فاجهر ذلك نحو السماء ولا تخشَ، أنظر هناك حيث الجبال المشجرة، هل ترى الغابة؟ هناكَ اختبأ ولي صالح هارب من مطارديهِ، مروا بجموعهم، تجاوزوهُ ولم يروهُ، الله سبحانه وتعالى استطاع تضليلهم، يزوره المتوسلون، يحيطون المكان بأغطية بيضاء، يربطونها بالأشجار المحيطة، يمكنكَ رؤية القماش يرفرف بين أشجار الخروب والجوز.

يصمت (حازم) مشدوها بكلام الصياد، بينما الأخير يسترسلُ:

- سترى الأسماك تتراقص داخل الأحواض وترقص على أنغام الموسيقى الهادئة، تترنح بذيولها وتزفر بخياشيمها، تغوص في الأعماق، وتسترد السطع مغافلة، هل رأيتَ الأسماك تتراقص؟
- أظنني أستمع الى أساطير وقصص من وحي الخيال.
- لا بل إنها الحقيقة يا بني، يمكنك التجربة، هل رأيتَ مرة زهرة فم السمكة؟ أتدري لمَ سميت بهذا الإسم؟ إنها تسرق أنغام الحب وتخبئهُ بفمها!

(حازم) يحدث نفسه:
- (أظنني أصاحب معتوها، إلى أين يأخذني؟ إني لا أرى روضا ولا أحواضا ولا أسماكا، لا أسمع زقزقة العصافير ولا هديل الحمام، ولا حتى صفير سيارات)! أظنكَ تأخذني إلى العاصمة.

- العاصمة! بالطبع لا وألف لا، من يترك الجنة ويذهب إلى الصخب والضوضاء؟
- ذاهبان إلى الجنة إذن، لا تنسى أن تقرع الأجراس كي يشرّعوا ساكنوها لنا أبواب الدخول!

ضحك الصياد طويلا وقال:
- تحسن المداعبة، لقد أضحكتني بالفعل...

قال (حازم) في قرارة نفسه:
- (يبدو لي أن هذا الصياد من الحالمين أيضا)!

والصياد أيضا يحدث نفسهُ:
- (أخشى أن هذا العاشق ذاهب إلى بلاد التيهِ كما فعلتُ أنا من قبلهِ)!

* * **

تغتصب خلوتها طرقات متتالية، أصوات لم تألفها تزيل عنها وحدتها وعزلتها، ظنتها رنين ناقوس! شتّان ما بين الصّوتين! أيمكن أن يكون طبل من الطّبول؟ أبعد ما يكون...انها أشبه بطرقات خفيفة على جسم صلب، دقات غريبة وجلجلة بعيدة عديمة الأصداء.
تقترب من النافذة تتفحص من خلالها الصوت الغريب, تبعث بنظراتها الى عتمة المقبرة المجاورة تستطلع الأمر غير متحمسة، يا له من منظر كئيب, كلما تفرسته ازدادت حلكته وتعالت الطرقات باقية ملحاحة!
تهتاج هدأتها ويتفجر سكونها، أفكارها الآن تتعدى هذه الغرفة واللوحة المنتصبة أمامها، إحدى لوحات الماضي. تستمع الى نغمات هادئة من مذياع يرافقها ليلا نهارا ربما يعيد تقويم شعورها المكتئب فيهون عليها حتى الانتهاء منها. أجلّت التدوين لكن ما مفر من المحطة الأخيرة، قامت برسم جميع حلقات عمرها السابق ولتكملة الدائرة وجب عليها تدوين الذكريات الأليمة.
تريد استطلاع الأمر ربما يغادرها الوجل, محتاجة هي للسلام النفسي، لو تعلّق أعباءها على حبال الجحيم فيذهب بها الى غير رجعة، لو تتركها وتذهب! ستصرخ بوجه الراية تعلن الاستسلام وتكتب وثيقة الإنسحاب، ستستقيل... سترحل... ستبارح...

ترهقها ملابسات تلك الليلة المُغيرة، تتعاقب فيها الأحداث الدخيلة فتُذهب عنها صفاء الخلوة. يتقمصها الخوف بجميع أشكاله, وكأنها تحادث أحد الأشباح:
- لا أعتزم التأخر هنا، هي بضعة لوحات لأحداث حزينة حصلت في الماضي، أزمنة غابت عنها الشمس، مواقف حرجة تخبطت بحدود الذاكرة الماكرة تعترض المألوف فأخرج لأفرج عنهُ بسلوكي غير العادي، وهو تفصيلي لحقائق امتزجت بالواقع المرّ.

يتوقف الصّك، يبتعد عن مسامعها فيزول الصوت بمعية شبح مغادر, يهرول بين القبور بينما يكشف نور البدر جزءا من لحيته الطويلة.
يتمكن الضوء الباهت من تتبع خطوات المجهول، يُطيلهُ تارة ويقصّره كلما ابتعد، يختفي خلف شواهد القبور العملاقة التي ملأت المكان، يمر من بينها لا يلوي على شيء إلا المشي قُدما، يغادر مسرعا من حيث أتى، وفي يده أداة جريمة, إنها ترى المطرقة وهي في قبضتهِ، يقبض عليها بإحكام .

تسرع نحو غرفة الشيخ، القوّام على مسجد المقبرة، يحيا حياة التقشف والورع، يمضي أوقاته في الصلاة والتعبد. تناشده حتى آخر الممر، تعلم انها ستؤرقه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لكنهُ حتما سيتفهم وضعها، ستروي له كل ما رأتهُ وسيذهب عنها خوفها بمجرد أن تحدثه بما يحصل، لن يؤاخذها ولن يكبح جماح ذروة الكلام من فمها، ستتكلم من أعماقها، ستتفوهُ أخيرا وتحادث إنسانا، لن تبقى مع نفسها وحيدة، النفس لن تستوعب الذي يجري، هو الذي سيسمعها، ستروي لهُ ما تسمعهُ وما تراهُ، نعم لن ينعتها بالجنون ولن يسخر منها، ولن يصدّ الباب في وجهها.
انها ترى حذاءهُ أمام عتبة داره، خارج غرفته المُسجاة، علامة وجوده في الداخل، سيستقبلها، لن يتسّلل متهربا إلى المسجد ولن يتركها تتخبط في حيرتها.

- أعلم أنني أشاكس خلوتكَ وساعات راحتكَ، اغفر لي، هي حكمتكَ التي أطمح إليها..

- ما الذي يطرق بابكِ يا بنيتي؟ أهو الخوف، ممن ترتابين؟
- بل القلق والأحداث المبهمة التي أشاهدها وأسمعها منذ زيارتي للمكان!
- ما الذي يؤرقكِ في هذه الساعة الهادئة!؟
- إنه ... الصوتُ الذي يخترق وعيي وهدوئي.
- صوت! أي صوت؟
- وأيضا رؤيتي لأحدهم ..
- هنا!؟
- نعم رأيتُ شبحا يخترق القبور مغادرا ..
- إنها فقط التخيلات، همومكِ أصبحت تضيق الخناق على تفكيرك، كم أريد لكِ الرحيل من هذه البُقعة وأنت تصرّين التوغل فيها، إرحلى من المكان الموحش، لمَ لا تمضي أياما جميلة بعيدا ؟ أيامنا معدودة يا بنيتي ولا تدعيها تقترب من النهاية، استغليها، فبكِ الشباب والجمال، تملكين كل ما يتمناهُ المرء، مخافة الله ورضاءه، الرّيبة تسكنكِ، اذهبي فلا تفوّتي عليكِ اللحظات الجميلة، السّكون يتغلغلُ فيك والهدؤ يتقلبهُ وانت تضيعين بينهما، امرحِ كالأطفال فداخلكِ طفلة لم تحيَ، اصرخي كالصّغار فصراخهم يحتقن صدركِ، غيبي مع غياب الشمس وانهضي مع شروقها فبك روح الشباب.

- قفيِ على قدميك وتقدّمي إلى النشوة والسعادة، دعيهما تغمرانك إنك تتوقين إليهما.
- إرحلِ يا بنيتي قبل فوات الأوان.

- أتطردني من مقامك يا شيخ؟
- إنه مقام الله يا بنيتي بل أخرجكِ إلى الحياة، كل ما يوجد هنا مسجد صغير يتوسط القبور، تختارينه وتفضلينه في زمان غير مناسب، لكل زمان ومكان حديث.
- هل بإمكان الهموم الزوال؟ هل بإمكان الآلام الإندحار، وجعي يزداد، يخترقني ويمزق أعماقي.
- طهّري نفسكِ من آلامها المزمنة.
- كيف تطّهر العلة الداخلية؟ ما هو المُخلصُ ؟
- راحة النفس بنيتي.
- الراحة! السعادة!؟ لا متسع للسعادة داخل جدران الفؤاد .
- إرمِ همومكِ يا بنتي. حاولي النوم لا بد أنك بحاجة ماسة اليه.
- حتى الحلم أصبح يحمّلني أكثر من طاقتي .
- تعالي نصلّي معا بالصلاة تتراجع الكوابيس، إرمي أعباءكِ على الله فهو كفيلنا.
- نعم سأصلي معك، ربما بعد ذلك لن اضطر من إيقاظ نفسي من نفسي ومن إغفاءة استحال منها النوم العميق.

* * * *

-" ما بكِ يا خليلة الود! ألا تُبالين بوجودي؟ جئتكِ من أقاصي البقاع فامنحيني لحظة شوق وبرهة وداد "
-" ما هو دليل القُربى؟ "
-" تاج الماس في السّماء وعين البدر السّابحة ".
-"أتهزأ مني ؟"
-" بل أرشدكِ لمعرفة مكاني ".

وحملت لها الذكرى فوانيس مضيئة، لحظات عمر ساطعة, عمر يلهو ببلاهة النشوة، تلحظ حركات شفتيه الدافئة الناعمة فتبادله القبلة تلو الأخرى، تبرز جزءاً من جسدها، تعرّي كتفيها فتشرد نظراتهُ وتتيه ابتساماتهِ ومن بيت انحراف نور الشمعة الوحيدة تتهلل سماته. تنزع أنتين

المذياع المكسور وتطرحه أرضا، تصمت الأنغام ومن خلال لحظة الترقب تستمع الى اهتياج أنفاسه:
- " تروّي، على رسلكِ، لا تتحركي ولا تقتربي.."
- " لماذا ...؟"
- " دعيني أسمعها..."
- " تسمع ماذا؟..."
-" دعيني أمزج كأسنا الوحيدة بروعة اللقاء، نسكب ونشرب نخب امتزاج دقات قلبينا وتوحدهما..."
- " خطواتنا تقترب..."
- " نعم إنك قريبة مني... دعيني ألمسكِ..."

توقف المذياع، خبت الشمعة وغمر الغرفة الظلام، كان الليل بدرا والسماء صافية، تلألأت النجوم عالياً، لمحتها ترقص عبر النافذة بينما تستلقي على سرير واسع أعد لأثنين، الباب مغلق، يطبق على لهاث الصامتين، ذهبت في غيبوبة يدور فيها سقف الغرفة فتدور معه عدة دورات. الأقدام عارية داخل سرير تسرب منه عطر رجل ورائحة امرأة. أيقنت أخيرا أنه لا مناص لها من التهرب، لن تصمد أمام الأغراء. سقط الكأس، تهشم على أرض ملساء، كان فارغا وملأت الشظايا المكان...

اكتملت اللوحة وكان آخر لقاء، تُركت كي تجف، غادرتهُ بلا رجعة،أمهلت وألوانها الرطبة، للوحدة القاتلة، تركن زاوية ما، ربما نسيت أو أهملت، لا مجال لذرف الدموع. تبعها الى عالم الذكرى المجنون باحثا مغادرا عالم الأحلام، طوى المسافات والبحار، اعتلى أمواج اليقين، الطريق الطويلة. وعندما وصلها انفرجت أمامهُ اللوحة ساكنة، داخل اطار في مخدعها، تنتظر وحيدة، تراقب، تحصي وتدوّن أحداثا سابقة تصيح في الماضي الحيّ، تنساب صيحات الحاضر تتسلل الى اللوعة، تنتظر بفارغ الصبر توحد اللقاء تحيطها الستائر البيضاء.

تخرج (زينة) من صمتها، تستفيق على صوت الضمير، تناديها إغفاءة الحلم، تنهض منه وقبل أن تخرج تطفيء المذياع بأنغامه المسترسلة، وتخبي آخر شمعة مضيئة. لن تصمد أمام اغراءات الأصوات التي تناديها، تخرج حيث صفحة السّماء، صّافية، تبحث عن البدر، ينتصب في الأعالي وإذ بالإيقاعات تعلو مرة أخرى فتختلط أصداؤها, فينكسر السّكون ويتحول إلى أصداء متعاقبة متواصلة، تحثها الاستمرار، البحث والتقصي. هذه المرة لن تدع الخوف يستبد بها بل ستسير نحو القلق المضياف لتوثيق الحقيقة ولن تدع الشّك يداهمها، ما تسمعه موجود, تعي الحقيقة المجهولة وتتجلى في صوت واحد متعاقب:
-" يا إلهي ما الذي يهمّني من كل هذا الضجيج، لماذا يأخذني ذلك الصوت الغريب إلى محفل التساؤلات؟ ما شأني وكل ذلكَ؟".
-" لقد أصبحتِ يا (زينة) غريبة الأطوار، وكأنكِ تبحثين لنفسك عن متاعب ...".
تحدّث نفسها.
تحذو بخطواتها اللاشعورية نحو المقبرة، تبدو لها المسافة قصيرة، تتيهُ في الظلام والبدر حارسها، ينتقل مع خطواتها بتأن، يكتشف سبب تساؤلاتها ويسترسل مبتسما، يمضي معها حيث صوت التواصل.
لن تنتهي من هواجسها ولن تغادرها إن توقفت عن المُضيّ في سبيلها، الصّك هو الصّك، صريحا ومباشرا، يدعوها، يناديها اليه، إشارات ضوئية وسط ليل بدر يزهر ضحكتهُ مسرة وقوة, وكأنه باعث قوة!

لن تنتظر ظهور بدر آخر كي تشبع رغبة جامحة لبلوغ حق المعرفة. حب الاستطلاع يبدأ بطلعة استكشاف ينتهي إما بنيّات حسنة وإما بنيّات شريرة.

صوت من الداخل يناديها:
-" انتظري يا زينة..."
-" الى متى؟ لقد أطلتُ المكوث في مكان الوحشة، حيث قبور جميع أحبائي، دوّنتُ حقبة يسيرة من السنين، جمعتُ نزعاتي المكبوتة ووضعتها على قمة فُرشاتي، غمرتُ الألوان بمدخرات الذكريات،حرّرتُ قيود الموتى، اعتليت ضحكاتهم وأحزانهم، أيقنتُ أن الأحزان تتوارثُ تماما كبعض الأمراض الفتاكة ونهايتها الأفول، متى أغادر مكان الوحشة فهنا بقعة النهاية؟.

انتظرت اللا متى، لا حدود للحظات الميّتة، لحظات المكوث هنا تسرع خطاها إلى الأبدية، ستظفر بها عاجلا أم آجلا، لا مناص من لحظات الراحة والسكينة، أما الآن فترفضها. القبور لا تحتضن المُعافين الأسوياء وها هي تأتيها بقدميها، تهرول نحوها، تقترب فلا خشية ولا وجل، حتى أغتاظ الموت منها قائلا:
-" ألا تخشينني يا زينة!؟".
-" أدركُ بأن ساعاتي ما زالت طويلة فلن تقدر على احتضاني الآن".
-" أي ادراك هذا الذي يجعلكِ لا تخافينني فتكلميني بهذه اللهجة المُواربة!؟".
-" إحساس عميق دفين".
-" ماذا تفعلين هنا إذا!؟".
-" جئتُ أطهّر نفسي".
-" مماذا تطهرينها!؟".
-" جئتُ أفرغ همومي المدفونة في صدري".
-" وهل نجحتِ ؟".
-" طبعا تدفّقت كشلال ماء على منحدرات الآلام الدّفينة. أغوتني مرارة الحياة وبؤسها، أردتُ البكاء داخل صدر يحتويني وحضن يأوى جراحي، لكن ظلّت النيران تلتهم ما تبقى مني وما تبقي مني, غير العدم".
-" سيدتي لمَ لا تهونين على نفسك وتأتين هذا الزمن بإبداعك، أراكِ تَمرين بخطواتك الرّتيبة تملأين الكون بأناشيد الحنين, دعيني أُسدي اليكِ خدمة..".
-" أسمعكَ يا موت..".
-"افصلي الحُبّ عن الدّموع، دعي الحزن يخرج من مقلتيكِ والإبتسامة تزيّن ثغركِ".
-" أصبحتْ حياتي بعيدة عن الرّغبات، بل هي الرّغبات التي تنحّت عنها".
-" لكن رغبة البقاء ما تزال ".
-" نعم يا سيد النّهايات".
-" بماذا تشعرين الآن؟".
-"أشعر ببداية الحياة".
-"هنا! في .. المقبرة!؟".
-" نعم هنا والآن..".
-" يا لجرأتكِ، جميعهم يخشون مكان التقاء نهاية الزمان بالمكان".
-" مكاني مُغاير عن الآخرين وزماني لم يعد مرتبطا بلقائي معك أيتها القبور التعيسة، تنتظرين الولائم، تتغذين بها، تعتاشين على بؤس البائسين. ويحك لماذا تبدين نافذة الصبر معي، ألا ترينني أخطو نحو البدر والنجوم!؟".
-" أتخطين نحوهم فعلا؟ لقد لمسكِ الجنون الأكيد، ويلي, بالفعل إنك تبتعدين عن المكان، عهدتُ حاملي صيرورة الجنون فقط يمرون من فوقي ولا يرجعون، يفرون بخطواتهم المائلة العَصية،

يبتعدون كثيرا، أسمع قهقهاتهم المريرة وأحيانا أرى إبتساماتهم، ألمح عيونهم الحيرى، يرفسونني بأقدامهم، ما إن يلمحونني حتى يتحولوا إلى وحوش ثائرة ويكلمونني كالسكارى...".
-" صهِ أيتها القبور،اصمتي، لا أريد سماعكِ، إنكِ عنصر تشاؤم لا غير ".
-" إبتعدي من هنا حالا فالقبور لم تجهزّ نفسها لاستقبالكِ بعد، لا نريد إحتواءكِ الآن فلكِ من اللحظات الوافرة المُدخرة، إذهبي إلى عملكِ".
-" عن أي عمل تتكلم!؟".
-" بأناملكِ تقصّين شريط النهاية، تشيّدين أضرحة سبقت الوجود في سكينتها".
-" اني أدوّن اللحظات فقط".
-" بل تتوغلين داخل بحور الذكرى, عظيمة كانت أو بائسة، تنخرين بها حتى العظام وحتى سبيل تناص الأرواح، تغيّبين بريق الوجود من العيون المتوقفة عن الحياة، تخمدينها بنار فرشاتكِ الباردة، تضربين لحظة اللّعنة، تشتمينها حتى يذوب الفرح بين راحتيكِ".

* * * *

بخطواتها الوديعة تداهم المسلك الضّيق الذي شيدته باشجار خضراء قصيرة تدلف في ممر مسّدته بأحجاره الملساء, أزالت الأعشاب الضارة وغرست الأشجار بين القبور، استطاعت تحويل العزلة التامة الى مكان يعج بالخضرة والأزهار.
همس اليعاسيب يملأ المكان كجوقة، تحوم في الفضاء عابثة. إنها تدرك أين تحط قدميها فتشق طريقها نحو الظّلام ومخالب العتمة تتحول إلى مكائد تتوسط أذرعا خاوية تسقط من شجرة باسقة عارية، تخلّت عنها أوراقها حال تجنّي الخريف عليها، أو ربما بطش المطرقة المُتعَمد ودفن المسامير داخل جذعها الصّامد هو السبب.
شجرة تتوسط مقبرة، تفك وثاق الأيدي المكبلة التابعة لأجساد تخرج منها الأرواح بتثاقل، تلتجيء إليها، تحمل الوجوه الحزينة التي تخلت عنها دموعها بسبب كثرة الأنات المحتضره، ما تلبث الأنات أن تتحول إلى رغبة مكبوتة للاستمرارية في الحياة، تنشد الحب، تزهق الكراهية والحقد، وسيلة طلب القدر تكمن في سحر الآراء المتوارثة وهي غرز المسامير في أحشائها، فجذعها المكتنز يتسمع لمئات المسامير، يا لها من شجرة ورعة صامدة.
إنها " شجرة القدر" الوصال بعد انقطاع، هذا هو اسمها وتسميتها تعود لسكان المدينة العتيقة. كانت ملتقى سنويا لرجل تقيّ، مكث تحتها عدة أيام حاول بها تلبية إرادة سكان المدينة، تلا الصلوات للمرضى والمحتاجين، شاركهم همومهم وقبل المغادرة نثرالماء المقدس حولها, واستمر في طريق نشر الصّلاح والحكم بالعدل بين الناس في بلاد ومدن أخرى قريبة.
ردد القول :" هذه البلاد مقدسة لا يمكن أن يختفي فيها أي شيء، جميع الأسرار ستنكشف وستكون واضحة جلية، حتى لو كانت بصقة مدفونة تحت حجر".

اعتقد الجميع أن بواسطة " شجرة القدر" تُحل جميع المعضلات وتنتهي المصائب، بها تُسَير الحظوظ ويُلَمّ الشّمل، لكن هناك شروطا واردة يجب التقيد والالتزام بها، أن يكون القمر بدرا وأن يصون الطّالب لسانه حتى انتهاء المهمة، الطّرق على الجذع هي المهمة المُلقاة على عاتق صاحب الطلب.
علامات الصّك ثغور مقصودة داخل الجذع، فهناك تغرز الجرّاح النازفة، تؤخذ من داخل النفوس لتدفن داخلا، والبدر علامة ابتداء شهر جديد سعيد على أشهر قديم يرتحل بتعاسته، والتزام الصّمت علامة فتح باب جديد في مسيرة الحياة، بداية مغايرة في مشوار خال من العقبات، مشوار نقيّ صافٍ، مشوار الى البدايات.

كلّما طُرقت الشجرة تكون ولادة جديدة، شرايين نقية تمتد حتى العروق الوارفة، هنا تكمن الاستمرارية ومن هذه النقطة تسخّر عبودية الانتظار. لن ينتظرا, (حازم) و(زينة), أكثر مما انتظراهُ، لن يؤجلا وعدا فبالوصال تتحقق العهود وتكتملُ الحقيقة، الحلم سيختلف الآن سينقلب إلى حقيقة جلية ظاهرة، الحلم لم يكن سرابا ولم يكن سباتا بل, هو واقع تفنن به العيون وتقشعر له الأبدان .

استمر (حازم) في الطّرق، صامتا مستغرق التفكير، هدف واضح ومن أجله هو موجود في المكان، يتبع إرشادات الصّياد، يتقيد بها، يواصل عمله وهو على يقين بأنه سينال مُناه، لن يرده الخوف لأنه لم يعد يخشى في الحياة إلا الله. واصل عمله وهو على يقين أن حبيبته ستصل، إنها على مقربة منه، لن يتفوه ولن ينحاز عن الشروط حتى يراها ويلتقي عينيها، ترى أما تزالان تبرقان حبا؟ ويرى وجنتيها، لا بد انهما لا تزالان تحتفظان بتوردهما! اللقاء أصبح وشيكا، المسافات الوعرة أصبحت تضج بخطواتها، إنه يسمعها، إنها تقترب، لن يدعها تفلت منه هذه المرة، لن يدعها تغادر بدونه، لكن هل ستتعرف عليه بهذه اللحية وهذه الملابس البالية؟ ألن تخشاه؟ ماذا لو حسبته مجنونا فتطرق ابواب الريح مغادرة! ماذا لو ظنته ثملا فتخاف الإقتراب أو تهرب من المكان! لكن الثمِل لا يقوى على كل هذا الطرق وبهذه المهارة، يجب التعرف عليه وإلا ما كانت حبيبته، فللأحباء إحساس خاص يملكانه، حاسة سادسة خارقة لا تخطيء ولا تخيّب الظن، يجب أن يكون إحساسها معه فيما يفعل من أجلها الآن وقبل الآن... ماذا لو حسبته متخلفا فتخذل!؟ ماذا يفعل أيترك مهمتة أم يتابع؟ لا يريد لها أن تراه بهذا الشكل ويريد أيضا للأمنيات ان تتحقق، بماذا يساومه القدر اليوم، ألا يكف عن مساومته، ألم يتعب!؟ ألم يملّ!؟" ويحك يا أيها القدر! إياك أن تضرم نار التفرقة بينه وبين حبيبته، أتلاحقه حتى هنا والآن بالذات؟ الآن هو آخر المشوار ولن يبقى لديه شيء آخر يفعله، لمَ تتحكم بأقدار الناس وسعاداتهم!؟ لو أنك ترحل ريثما يتقابلان, إنهما حبيبان! أتعلم ما معنى ذلك الذي يسمى حبا! ألا تدرك طلبه الصارم باللّقاء!؟ لم لا تمنحه مبتغاه، لقد دفن أثقاله بعباءة الماضي القاسي والآن يفتح أبوابا موصدة كي يحقق مبتغاه".

وجدت (زينة) نفسها داخل صومعة مشبوهة مدعمة بهلوسات وخرافات. تنقاد حيث يداه، تعرفهما، نعم هما يداهُ! يقتلها حب الإستطلاع، تلهث حتى انقطعت أنفاسها، تتيه بنظراتها تبحث عن جواب لتساؤلات تغمرها, بعينيها الذابلتين تجحظ في الطّارق فلا ترى إلا شبحا يداهم الصّمت بضجيجه, يدحر الظلام بحركاته العصبية، إنه هو بدمه وشحمه، إنها تعرفه لكنها تجهله، لقد مرّ من ناحية نافذتها، أيعقل انه هو الذي خطا نحو الشواهد في الليالي السابقة!؟

الشبح أصبح حقيقة جلية، إنه أمامها، بين الأضرحة وهي أمامه تتوسطها أيضا، لقد خطا بلا وعي وخطت هي أيضا نحوهُ متجاهلة الخوف، لقد تركته هناك، أمام لوحة العائلة.
عَدت نحو الشجرة العارية وبكل جرأة، وهو يرقبها بنظرات مليئة بالغبطة، ذلك الغريب ما هو إلا حبيب ضائع.
صدى صوته يعلو:
- إلى من تسكن مساحات قلبي دون أن أراها!
انه بالفعل لا يراها فلها ظهرهُ، له طاقة بلا حدود، يستمر يناشدها ويداه تهرولان خلف الضربات المتعاقبة.
- وقع الصدى يدنو مني، لا تتوقفي فتوقفك سيقتلني، لمَ كل هذا الصمت! باتت الكلمات حبيسة القلب!؟ تعالي إليّ أخشى ضياع الكلمات وتعلّق الحروف، داعبيها بصوتك الرّخيم كلي آذان صاغية، دعيني أسمعهُ، أشتاق إليه وأشتاق إليكِ, يا من الهبتِ صفائي وحنيني، قلتِ لي يوما أحبكَ فهل نحن على العهد باقيان!؟

- أنا من تحمل الشوق بين ضلوعها.

القى (حازم) المطرقة والتفت إليها بعينين مشعتين، اقترب منها وبنظراته القاتلة أيقظ الحنين داخلها، أول ما أراده هو احتضان جسدها المرتجف، تقابلت العيون ولأول مرة يبتديء التدوين.
تفجّر الحلم ليأخذ مأخذ الحقيقة الثابت، العينان هما العينان, لا مجال للشك، لا ترهلات ولا أخاديد وكأن العمر توقف بهما، هو الإرهاق المؤقت الذي يغلفهما، وربما دمعة أخيرة ما زالت تحتقن وتستقر على وجنتين غضتين.
بكت (زينة) ومحى (حازم) آثار الشتات من عينيه، أخيرا يعلقهما داخل جذع الشجرة المباركة وبانامله الجافة يمسح آثار الغربة عن خدّي حبيبته، تقابلا كصنمين لا يلويان على شيء إلا التأكد من أنهما هما وليس غيرهما، نعم انهما هما وليسا غريبين، تعرفه ويعرفها، تدركه ويدركها، انهما متقاربان لا يفصلهما سوى همس اليعاسيب اليقظة.
منذ زمن لم يمسك كتفيها فمسكهما, لم يلمس ظهرها فلمسه، بحركاته الدائرية عليه استطاع إخماد رعشة الوجل وهي ترتعد حبا وشوقا.
استنشق رائحتها الطيبة، نفث أنفاسه الحارة على عنقها مسحه بقبَلة، يحاول إطفاء ناره المؤججة داخله فيختار عنقها، كتفيها فصدرها ...
يقودها خارج المقبرة، تسترد خطواتها التائهة، تمضي معهُ الآن ستتعود على سرعة خطواته، يسرعان نحو العالم الخارجي، يغادران الدائرة المغلقة، يدعان الأحزان خلفهما.

يترجلان حتى حافة البحر، على صخرة عالية يجلسان ملتصقين، الكتفان يلتقيان والصدران أصبحا واحدا والساقان ترتعشان. البرد قارس والشمس تتأخر عن المجيء، القمر يلازم النجوم فيسطعان داخل الموج الهادىء ويدا حازم تهدهدان جسدها المستسلم. تترك الخجل للرّيح، تنحني ساجدة أمام حب عظيم وتشارك حبيبها الطريق فالمستقبل ما زال أمامهما، السّكينة أصبحت تلازمهما، لن يناما فلهما الليل بسحره وتألقه، الأجفان ترفض النّعاس والقمر يتسكع بجوارهما مبتسما.
مالت برأسها على صدره، أخذها داخله فما بدآهُ لن يضيعاهُ، اليدان تتحاوران كفاها تسكنان كفيهِ، يلثمهما، إنه عاشقهما، وقعا أخيرا في قبضته.

- لن تغيبي عني بعد اليوم ولا لحظة يا من ارتضيتُ بالموت من أجلك، لن أدعكِ تفلتين من قبضة قلبي فلم يعد للقيد لزوم وأنا بين يديكِ، لن تنامي وحيدة بعد اليوم فالنوم يشاركنا الحلم في السّبات، سنرفض الأحلام المؤجلة، ما دمنا قد نوينا تحقيق الحلم، أثيري فيّ غضبك الجميل وبشاشتك فتلتهب شفتانا، سنتوقف عن الكلام، لن نتكلم فيضيع علينا زمان الحب المُقيد، أغفري لي حبيبتي تأخري فذلك شأن المحبين وخلود العاشقين. أطعميني من كفيك فلن أقوى على عدم تقربي منهما، إهديني إلى طريق شعرك الناعم فأبلله بريقي, فبعد اللقاء تحولت المرارة إلى حلاوة، لن أدع لغيمة عابرة تبللهُ ولا يقظة شتاء عابر يغرقهُ، سأغرقه على طريقتي، سأنهج منهجي الخاص فاسلوبي لا يحتكره أحد، هبيني دمعة من ثغرك ومبسم ما بعد النشوة، إخلصي لقلب جريح تاه في عصر من جليد، أوثقي ذراعيك بذراعي ولا تدعي لطير الشؤم من دخيل، سنكون إثنين في جسد واحد والتلاحم لن يمر مرّ الكرام. أهديك سلسلة عمري فهي سنواتي الباقية لي على الأرض النفيسة، تعالي نسعى مروج السعادة وننسَ ما جنيناهُ طوال العمر من تعاسة. يا ربوة أرضي الخصبة أهديك خاتم الحب.
سأجند تعاويذ الأرض لحمايتك، سأجني على كل لحظة تأخذكِ مني، سأدعك في قلبي فلن تفلتي من زمام قيدي، انهكيني فمتاعبك راحة لي، أغمريني حبا فمن مثلنا يتقن مزاولته.

* * * *

من الذي يستطيع استنطاق الوجلّ، العهود تغزو العقول والعقول الشاردة تمنح آمالها للقدر.
- افكارك يا (زينة) كإبهام منفصل عن باقي أصابع اليد.
- لن احتمل أنين الفراق مرة أخرى كعدم احتمالي بتر معصمي عن ساعدي.
- قالوا لي ابشر، ها قد حان موعد اللقاء، أجبتهم: فهل تنتزع الأحلام بعد اليوم من نفوس الحالمين، إنه ليس حلم منام، أصعب من ذلك بكثير... إنها أحلام اليقظة.
- لنا ذات الحلم يا (حازم) .
- نعم لقد انتظرتك كثيرا يا شمس حياتي، تهت في مياه اللانهايات، تدافعت أمامي الجثث، طفت على سطح المياه المالحة، حملنا رسائلنا الى العدل فرفضها، ضحينا بأرواحنا فزاد الظالم طغيانا، هامت الأرواح من حولنا، تحمي ما تبقى منا، أتعلمين لماذا؟ لأن للحلم بقية..اصطحبنا حلمنا الكبير، عبرنا به حتى النهايات... قصدي القول...أدركتُ النهاية وحدي...
- يجب نسيان ما مرّ عليك لتكملة الحياة.
- لم نر سوى ألفة الأشياء، دماء، ضحايا، آلام وجوع، لم نعرف غيرها، كلما مررتُ نظري في ذلك المركب اللّعين أرتعتُ ريبة وبكيتُ دما لعدم وجود ذلك الطفل الوديع شادي، ما ذنب طفل طاهر يوشم بتعاسة القدر!؟.
خيل إليه رؤية والدتهُ تلوّح له من الشاطيء فنزل يتخبط المسالك بحثا عنها، أتتهُ رصاصة الغدر أردتهُ في الحال قتيلا ... ما زال صدى صوتهُ يملؤني...
- كف عن الكلام يا (حازم) لقد جرح صوتك.
- دعيني أكمل فلن يموت الكلام في حلقي. قال لي إنها أمي، والدتي، هي التي رمتني في هذا العالم، أسمعها تناديني، تلوح لي بيدها، إنها تراني كما أراها، لقد كانت بانتظاري..أجبتهُ أين هي, لا أراها، "إنها خلف شجرة على ذاك الشاطيء، تضحكُ لي". لم تكن شجرة ،بل رمال تحولت الى أشجار متنقلة. فمن أين تأتي الخضرة ذلك المكان المليء بالكراهية والأحقاد؟ ربما كان الجوع قد استبد به فهو طفل، وربما عاث فيه دوار البحر فصرعته الأمنيات...
- يجب أن تساعد نفسك على النسيان ...
- - لن أطوي أحزاني وهمومي كي أدونها داخل كتاب.
- الغد هو الحظ.
انتظرتُ الغد وبعده وبعد بعده، أرقب الشمس, غادرتني اياما، أبت الرجوع، ولما اتخذت كبد السماء بعد احتجاب ارتعدت خوفا من ملاقاتي، احتجبت فانهمرت الدموع من بعدها، ربما هي عقود التيه. حتى عرض اليم يزيد المركب غموضا، سألنا عن وجهة الترحال في بداية التيه، لم يجبنا أحد. عفوية المياه وتحركاتها الدائرية قربتنا من القدر، فررنا من وجه الظلم والاستعباد فأخذنا بيدين مكبلتين الى القتل الموحش، سألنا أنفسنا مرارا عن العدل فاذا به ينعانا، أحدهم توهم رؤيته اليابسة، لحق بها فابتلعته المياه، كل الذي استطعناه ترقب سقوط النفوس الباقية وهي تطوف تبحث عن الطعام وقطرة ماء، يا لمهزلة القدر نموت عطشا بينما يحيطنا كل هذا الماء! شلالات من التسيب أدت الى تشرد الأرواح، انقلبت أحلامنا الى أفكار سوداوية، أصبح البقاء يخيفنا، أتدركين يا زينة ما هو حلمنا الذي صبونا لتحقيقه، إقامة (ميزان عدل) حال وصولنا الارض سالمين، كنصب تذكاري، نؤمه كل فترة وفترة نتذكر المعاناة المشتركة التي مررنا بها, لا ننسى, ولا نظلم أحدا في يوم ما، لكن أحلامنا تشاطرتها أرواح الموتى, غابت الأجساد تحمل رؤوسا حالمة تطوف عبر المسافات، طفت الأذرع متوعدة تبقى لبرهات فوق سطح الماء وما تلبث أن تختفي بلا رجعة، تسرع الى الحيتان التي تتضور جوعا، تطوف داخل النفوس البائسة، تبتلعها ويتوقف الترحال.
الألم خير امتحان لنا, استطعنا التعايش والتعامل معه فهو دائم التجدد حتى الاستسلام، بل هي طاقة ثرية باطنية تنطلق من داخلنا فتطهر النفس وتجددها.
علّمني القدر البكاء مع الباكين والفرح مع الفرحين، هكذا استطعت الخروج منتصرا على همومي, طالما سألتُ نفسي سؤالا:

- هل تقاوَم الآلام، رأيتها وهي تبحر ملاصقة لنا...
- ما الذي رأيتهُ !؟.
- الآلام، لقد عبرت الخليج، حصلت مشادة أفقدت الحب معالمه، قطرات الألم أصبحت بحجم المكعب، القاسم المشترك بين سقوطها على ورقة الشجر وبين انتظارها الخليج وعبوره هي الأفول، عاجلا أم آجلا ...
- هل تحوّلت الآلام الى قطرات مكعبة!؟ ماذا بكَ ألا تدع التشاؤم وتنسى الماضي؟ هيا نبدأ حياة جديدة بلا ندبات سابقة وذكريات موحشة، دعنا نحقق الأحلام المؤجلة...

أدركت (زينة) أن ما يصيب (حازم) هذيان إرهاق، دعته يستريح بين يديها بينما تمرر أناملها بين خصلات شعره ثم جبينهُ، ترتاح راحتها عليه فإذا بنار متأججة تحرقها، تسمع أنينهُ، تمررها على صدغيه تأخذ وجنتيه فتقربهما من شفتيها المرتعدتين، تلثمهما فتزيدهما حرارة، كل لحظة تمر عليهما تحسب في التدوين الجديد، أرادت لعيونهما التلاقي وما كان منه إلا الخضوع والإستسلام لنوم عميق، النوم يلغي الألم وكذلك الماضي بتوابعه، لعل في النّوم النسيان ...

تمضي الليل تدفع عنه الكوابيس، تسمع أنينه، تحيطهُ بذراعيها وكأنها تمنحه الأمان، لم يبقَ أمامها سوى محاولة إيقاظه فصدره يعلو كلما استغرق بسباته، أعباؤه لن تغفو وأنفاسه تنشد الأعماق، تتوغل فتتحد مع حرارة جسده الآخذة بالإزدياد، إنه يغيب عنها ويضيع منها, وهو بين يديها، لمَ الليل يسقيها المرارة وهي قريبة منهُ؟ يا لمهزلة القدر, أمضت عمرها تشتاق قربه وها هي قريبة منه والفراق لا يعرف له نهاية.

متى ستستعيد وإياه شبابها الضائع! يداه في يديها، جسده ممدد بجانبها بلا حراك، قلبان قريبان وصدران أحدهما يشتعل لهيبا وآخر قلق حزين يقاوم الغفوة .
تدافعت أناملها معاودة الكرة تفرك عرقه داخل راحتها وبشقاوة المراهقين تقربه إليها, وبطرف أنفها تتحسس عنقه ترتفع حتى ذقنه، تتوجس حرارته بخدها فتطمئن عليه، وبحركاتها المكررة تلتقى أشواقها قلب حبيبها الحزين. تقاوم سلطان النوم، لن تضيع عليها لحظة الوصال، بات الحنين موقوفا, حتى سلّمت نفسها أخيرا لنوم عميق.
غادرتهما أخيرا سخونة سنوات القحط ...وستغادرهما وصمة انتظار اللقاء.

متى سيحيي الميت داخلها؟ إنها جاهزة لاستقباله، لملمت أوراقها من الضياع، تعلم أخيرا ما الذي تريده, وما الذي ستفعله من أجل نفسها لن يلومها عليه احد، ستصرخ باعلى صوتها تعلن لله والناس إنه حبيبها، ستنادي وستتغنى، سيشاركها القبل, سيومضها كالجمر وشيئا فشيئا سيتحول الجمر الى نار مشتعلة... ستكسوها ابتسامة السّكينة والرضا.
هي عدة نساء في امرأة واحدة, فواحدة لن تسد رمقه. هذه المدينة تشبهها، سُبلها مرصوفة على طول شاطئها المعوّج وكأنها تمرّ على كل فقرة من عمودها الفقري، تجسهُ بلطف وتنحني أمام الأمواج الصاخبة، يعلو الصراخ ويهدأ فيصبح رقيقا عندما تغمره الأمواج تقبيلا. علّمت شواطئها الإصغاء لأحلامها فتقف كالزجاج أمام لهيب أنفاس غازيها، واضحة مُجلّلة مشعة، منتظرة اختراقات تقصدها هي ولم تتعودها، مالك يزيل طوق البلور مغلفها، كما شمس الحقيقة، فما الزجاج سوى روحها المرهفة وإحساسها المزدان بالرفعة. روّضت حقل خاصرتيها تهليلا، يهتزان فيرقصان فقط بمجيء الحبيب، كل رقصة صاخبة لا تشبه (السلو) الهادئة. تقول لهُ في أعماقها:
- "إن أحبّتكَ مدينتي ستبيح لكَ الممنوع وستتدفق المياه من أعماقها... تضرب الشطآن بجنون، تكسوها محبة وزهوة، يمتلئ الأفق صفاء والفضاء طهارة... هذه هي مدينتي، مدينة الشمس الباقية المتوهجة بالحرية...".

أتوقظه أم تنتظر!؟ ستحاول مشاكسته كي يستفيق من نومه العميق فهي على أحرّ من الجمر، لماذا لا يزال يأخذ ذات الطرف من السرير دون حراك!؟
أغنية الفرح تنتظر مُغنّيها، سيغنيان اللحن معا، لم يعد صوتهما مجروحا، متى سَيَفي بالعهود؟ لا مجال لنكران وجودها، هي هنا بمعيته داخل سقف آمن وباب مغلق، وحيدين ولمّا ينعما بعد بمتعة الحياة ومغرياتها.
-" لم يا حازم لا تستيقظ فبيننا الكثير؟ سهرتُ الليل بطوله أمسح من عينيك الغربة، أجفف عرقك عن جبينك، فأبيتّه داخل راحتي حيث خطوط الحياة، قالوا لي أن حياتي طويلة، خطّ الحياة قال هذا... نعم سنكمل معا رحلة متعددة الفصول، هيا استفق ... ".
دفنت جسدها داخله، رقدت في ظلّه، كورته فاصبحت كعصفورة، تدخل عشّ الحنين، تدفع به نحوه, فما كان منه إلا الصّمت... وكأنه الصّنم، ينام بشموخ دون حراك... حتى في نومه يبدو شامخا .

تسربلت الهمسات داخل الحجرة الدافئة، تحولت الى لمسات تأخذ حيز الترقب وتتدفق الدماء في وجهين ملتصقين:
- سأرقد بظلكَ إذا تجاهلتني فيمكنك تقبيل يدي أما شفتي فمستحيل.
أنهالت عليها قبلاته الحارة مثل حبات المطر:
- معا سنمضي، سنتخطى العوائق، سنعدو في الأرض الوعرة فنحولها إلى سهول خضراء، كلما لمست قدماك سهلا ينتقل اخضراره إلى آخر وآخر، سنعدو بخفة الظافر، لقد ظفرتُ بك أخيرا لن تفلتي مني بعد الآن، حبي لك عبادة وولهي بكِ بلا نهاية.
داهمهما السّكون للحظات:
- ما الذي يدعكِ إلى الصمت يا (زينة)؟
- أنتظرُ الصباح، يقولون النهار يكشف اسرار الليل فتبدو الحقيقة جلية كقمم الثلوج.

ارتعدت الأيدي، ارتجف القلبان ولمعت العيون، أصبحا بعيدين برغم قربهما، ذهبت روحاهما في سماء عجيبة وتراتيل الرحيل تصاحبهما، تتجول في الهباء... يفقدان العنوان من جديد، ترجع الجراح الى النزف، ابتساماتهما تتيه، تغادر مع ستائر الليل المبهم، ما تزال الأحزان تسكن الضلوع...
خرج (حازم) من تحت الغطاء مرتعشا:
- ما بالك أرجوانتي ما الذي جرح صدرك، كلماتك تقتلني وعيناك الناعسة تعيد اليّ طفولتي، لا تبتعدي عني، الى اين تذهبين بأفكارك!؟
- أرجعُ إلى أرضي، أختفي خلفها، لن أعود للسّهاد والقلق فهناك قصري الذهبي ...أراه مقفلا...
- أترين النّجوم في السّماء، جميعها تأفل وتسقط إلا ذاك النجم يأبى السقوط، أنتِ .
- بل هناك وتر واحد ينوح من غير عود.
- إنك العود والوتر، اللّحن والأمل.
- - هل سنغني معا؟
- نعم فأنتِ أوتاري، لحننا واحد ودربنا واحدة، لقد حملتُ دهرا من الوجع فوق ظهري، تهت في البحار، زرت جميع الموانيء إلا ميناءك زرته بحاستي السادسة، رمتني اليكِ، حطّمت كل ما كان في طريقي من قيود، بمعولي فتحت بابك، طوّقيني بسور جنتكِ واخلعي عني هذا العذاب، هي رشفة ترويني بعد كل هذا الجفاف.
- أخشى مراقبة الجموع ، ترميني بنظراتها فيسقط مني الخشوع.
- رحلتُ فوق جناحي هويتي، لا قرار لي ولا سماء، فعلت مثل عباس بن فرناس، كان كذبة، حين حلّق به الشمع ذاب وها انذا أحلّق فوق رأسي، لا ارض لي سواكِ بعد هذا الإغتراب...

- حنين قلبي بكَ زاد، أصبحتُ كزهرة الجوري الحمراء تنثر احمرارها خجلا ووجلا, بعد قبلتكَ وصل بي الجنون...الى نهاية الحلم.
- أنا الإنسان، في سرّه يبنى مملكة وفي سرّه أحيانا ينهال عليها يحرقها ويدمرها، لكن في سره أيضا يبتسم لمملكة يشهدها.
- جئتَ من الأحلام، وصلتَ بوجهكَ الشاحب، التقيتَ بقسماتي الذابلة وحواسي الهائجة... هناك هاجس يقلّم شعاع أفكاري...
- مما تخشين!؟
- أخشى المستقبل....
- حنيننا إلى اللقاء جعلنا مثل طفلين شقيين.
- ولمَ لا ندعُ الطفولة داخلنا فنحن الإثنين بحاجة ماسة لها؟
- فراشي أبيض مثل زبد البحر.

يطلّ الفجر عبر الأحلام والقلق يغتصب شدو بلبلين جائعين للحياة:
- لم يعد لي أرض سواكِ، أنا حائر بدونكِ، آويني فقد فقدت مهدي الأول، أغرقيني في سحر عينيكِ، كم عاشق مات من ولهٍ، أمطريني، أنا يا شفائي على عجل من أمري،دعينا إلى الوصال.
- كلامك يذيبني.
- تعالي كي أمسح دموعكِ، لا تدعي الأوتار تنام مع الصمت.

* * * *

قررت (زينة) الرحيل بعيدا، هو قرار صعب لكنها اتخذته، ستفقد حبيبها متعمدة، لن تستطع منحه كل هذا الحب، يتفوق عليها به، لن تمنحه إلا القليل فهو العظيم في نظرها... فماذا فعلت من أجله!؟

انطلقت تغزو وجهة البحر، ستبتعد. تمر بجانب المقبرة، ترمقها بطرف عينها لا تطيق النظر إليها, مهما حاولت فلم تستطع تحويلها الى جنة أو روض، ستبقى مقبرة وحاصدة أرواح، إنها مصفاة حال الدنيا... هناك تغَربل النفوس ... غربال ماهر ... يعرّي الأرواح من أجسادها، حركات ماهرة وبدهاء ماكر يقتنص ضحيته... يخلصه من الحياة وكأنها شوائب.
مهما حاولت فلم تستطع تحويلها الى جنة أو روض، ستبقى مقبرة وحاصدة أرواح, يلتزم الصامدون مركز الثقل، ربما تكون منهم، وبقلق ووعيد، تهديد أرق وتخويف, يستطيع الباقي الصمود, ينقذ روحه من عملية الغربلة الدائمة.
يوقعنا الغربال بصرخة، يخلصنا من صراخ مستمر كما البداية، ولادة حياة جديدة، هي ذات الشهقة، يفترق الإنسان عن أخيه الإنسان، هي نفس الحالة...الوصال ثم الفراق.
ستخوض (زينة) آلام الوضع، كوليدة تختلس الراحة في غمرة الغفوة تصارع الألم المؤدي إلى حياة جديدة وربما الفراق...الموت، هل تستطيع من ولادة جديدة؟ وربما... انتهاء حياة؟
راودتها أفكار النجاة والفوز... تحقيق الحلم الهارب... بالبقاء... الالتحام والتزاوج، الولادة ... الإبتعاد عن الغربال كي تنجو بنفسها وبوليدها. تُعلق أنفاسها، ممنوع لها الاستسلام! لئلا يفقد الوليد الحياة قبل الفوز بصرخته الاولى. اجتهدت في الحفاظ على انتظام دقات قلبها فبها توازَن دقات قلبه أيضا، دقات واهنة مرهقة من أجل مجيء طفل جديد الى العالم، فبها تتعلق حياته، أنها أم تمتلك الحياة من أجل غيرها.
حال قذفها ما بداخلها يستقبله الآخرون برعشة المندهشين قائلين:
-" لقد استطاعت الولادة، إنها الأم، الأرض، الحبيبة واستمرارية البقاء،إنها ثوابت قيود البقاء... ألم تفعلي شيئا بعد كل ذلك يا زينة!".

استطاعت اختراق نافذة الماضي، هزّتها بيديها، هناك أشياء أرادتها من ذلك الماضي، حافظت عليها من الإندثار، لتلك النافذة وجهان متناقضان... الحب والكراهية، الموت والحياة... الحلم والواقع...التوقف أو الإستمرارية...
-" أي وجه ستختارين يا زينة؟.
-" هل عاودتني ازدواجيتي!؟ إنها تمزقني من الداخل".
-" لا بد أنكِ تمزقين نفسك بنفسك، طالما حلمت باللقاء، ماذا تفضلين، الحب أم الكراهية؟".
-" لا هذا ولا ذاكَ ".
-" إذا؟"
-" أفضلّ استمرار الحلم" .
-" ستبقين حالمة طوال عمرك".
-" أخشى الحقيقة فالحلم ملاذي".
-" لا تكوني ممن يخشون الواقع".
-" أخشى الواقع، تذوقت مرارة الحياة فلجأت دائما إلى الأحلام".
-" ستسحقينه".
- " من؟ ".
- " حازم! أتتجاهلينه؟".
- " لا بل أضحّي من أجله فانا لا أستحقه".
-" انهُ ذاهب ".
- " إلى أين هو ذاهب!؟"
-" يذهب إلى النسيان وأنت أيضا تذهبين إلى النسيان، فهل الحب الحقيقي سيذهب إلى النسيان أيضا!؟".

طوقتها نفسها بطوق الضّمير، لن يدعها صوته تهنأ بالنسيان...

* * **

هل يغطي وجههُ؟ أينوحُ كالأطفال؟ أيولولُ كالنساء؟ أرتفعت يداه الى السماء، ارتجفت، لو يخرج من جسده, لو يبتعد من نفسه!! لو ينتحر...
لعن لحظة الوجود، شتم ...هام على نفسه كالمجنون.. أخذ سبيل البحر عائدا، لا منفذ غيره ولا طريق غير طريق التيهِ مرة ثانية، سيرمي نفسه إليه سيتيه، لن يرجو الوصول، فالبحر أرحم من حبيبة لا تعرف معنى الوصال:
- أي حبيبة انتِ يا (زينة)!؟ وهل الحبيب يؤلم حبيبه، أي ثوب ترتدين، فصفات الغدر ليست من صفاتكِ؟
فقد (حازم) آخر أمل في الحياة فلماذا يعيش ولمن يعيش بعد الآن!؟ سيذهب إلى النهاية بلا كفن ولن يرضى بأن يكفّنه أحد، لن يتحدى الأمواج ولن يقاوم سيذهب بمعيتها سيمنح جسده للحيتان، سيغرق بروحه وأنفاسه، بعيدا لئلا تغدر به روحه فتذهب مختلسة إليها، سيقاومها, سيسحبُ من قلبها ذكراهُ، لن يُبقي لها ولا ذكرى واحدة، لن يدعها تتعذب ندما لأنه يحبها ولا يريد أن يقسو عليها، سيأخذ معه العشق، سيستقيل من دوامة العشّاق وبشراسة سينتحر...
تاهت خطواتها، لاحقته فلم تستطع تتبع آثاره، سريع الخطوات هو، وهي ساكنة متألمة، حافية القدمين، تاهت في البلاد كحواء وحيدة على أرض وحبيبها في أرضها وحيد، أين ذهب الجميع؟ الربوع خالية إلاّ منهما، إنهما يمتلكان العالم، وحدهما يسيران منفردين، تائهين وثالثهما الهجران.

انحرف في طريق لاح فيه دوام الكينونة، ستدوم الخليقة حتى من بعدهما، سيودعان العالم والحياة، لن يبدأ من جديد بل هي الحياة التى ستبقى تبتدىء وتتبدىء بلا توقف...

تنتهي دورة حياتها وتستمر بنهاية عشق نُقش في قلبها وحتى أعماقها، أبكاها أكثر ما أضحكها وها هي تبكي مرة ثانية على دفنه، تدفن حبا في التراب وتدوس عليه بقدميها .
الشرّ ليس من عادتها ولا الغدر من شيمها لتعود خائبة هي وحبيبها!

تقترب من الشاطىء، هادىء صامت، يعاتبها:
- بقيت وحيدة إذا!
- لمَ أراكَ اليوم هادئا يا بحري العملاق؟
- هل تريدينه صاخبا صارخا!
- نعم أريده صارخا، سأصرخ حتي يعتلي صراخي على صخبه؟
- صرخت وبكيتِ، همستِ لهُ وشكوتِ، ماذا تريدين الآن؟
- لا أدري!
- تتمردين على حب حقيقي!
- أكره القيود، لا أريد أن أكون أسيرتها.
البحر يرتل نشيدا غير مألوف، الغروب حزين والشمس تعزيها قبل الرحيل.
- هل تعزّيني يا بحر، لمَ أنتَ ساكن؟ إني لا أسمعك! أين ذهبت بأبنائك، أمواجك الهائجة؟
- ستأتي كي تُرتل عزاءها هي أيضا!
- جميعكم تنعَوني إذا.
- نعم ننعي ضياع حب مليء بالتضحية والصبر، شاهدون كنا وشاهدون سنبقى.

لا تريد أن تكون أسيرته ولا هو أسيرها، ترفض الإرتباط به، تريد روحه فقط ، ستبقى روحاهما متصلتين وأحلامهما واحدة، ماذا لو تحولت حياتهما إلى عادات تأخذها الرتابة إلى السأم! يعيشان تحت سقف واحد، يكونان مثل باقي الأزواج, فتغيب ندرة العلاقة ويرزقان بأبناء، أيعقل أن تصبح أما بعد هذا العمر؟ ويكون أبا صالحا بعد ما عاناهُ من عذاب! هل سيمضيان بقية سنواتهما بين صراخ الأطفال وضجيجهم؟ يرجع منهكا متعبا كل مساء، حزين، غلاء المعيشة والتهديد بعدم الأمان, فيختلفان على نقاط كبيرة كانت أم صغيرة. من يعلم ربما تسوقهما الخلافات أيضا إلى الفراق!
لمَ لا يحتفظان لنفسيهما بالحلم فروحاهما معلقتان به، هو الصخب والهدوء، الضوابط والإنفلات، الصفوة والإنتظار، الراحة والتعب، العشق ومرارة الوله، روعة السكون والاشتياق، إنهُ أجمل العهود. ستحتكره وتمضي إلى بيتها تحلم باللقاء وكأنها لم تلتقهِ بعد.

* * * *

مطأطئ الرأس لكنه غير مهين يسعى في طريق يألفها، وحيد يحمل عصورا من القهر والآلام الدّفينة، الرياح تشير إليه الإنضمام إلى خطوات أخرى.
تتبدّل الخطوات فيسلك مسلكا مغايرا، لن ينحني أمام رغبات حبيبة خائفة. ذيول الذكرى تلاحقهُ، يرى نفسه طفلا، فشابا، فمهيناً، فملاحقا، فحبيبا، يرى الحروب، الدماء، الآلام، الترحال، الوحدة, البؤس, والعزلة، يرى الموت بشتى أشكاله, ما الذي سيدفعه لركوب اليم مجددا؟ هل اشتاق الى العيون المنهارة, والأجساد الهامدة، وجثث أصحابه الذين قضوا قبله داخل المحيط؟ لن يدع المأساة تتكرر، أبدا لن يفعل، لن يركب البحر ولن يترك حبيبته, فزينة الماضي والحاضر

والمستقبل، هذه المرة لن يترك لها الخيار، هو الذي سيختار وهو الذي سيقرر وهو الحبيب والعشيق والآمر في أمر توحدهما.

يراقب قدوم مركب من بعيد، قبل أن يبتعد، تُرى ما الذي يحمله ذلك المركب؟ يحاصره الخوف وتساومه الشكوك، يقف في مكانه كصنم والمركب يسترسل في الإبحار فيحط أخيرا في خليج المدينة، ينزل منه رجلان غريبان، أحدهما يبدو مألوفا، هل يكون أحد الرفاق ممن غرقوا؟ ربما كتبت له النجاة هو أيضا!
ما الذي يخشاهُ؟ طالما ساورتهُ شكوك بنجاة نادل الشاي، لم يكره له ذلك لكنه كره أن يكون معهُ في بداية حياته الجديدة، هل يكون هو؟ كيف استطاع الوصول إلى هنا، ولماذا يأتي؟ هل سيزاحمه على (زينة)؟ حاصرته أسئلة كثيرة وحاورته شكوك لا بداية لها ولا نهاية، ما أسوأ الظنون ولا يوجد أدنى من الشكوك"! إنهُ مسرور بأن الآخر حظي بالحياة مثلهُ ومندهش أكثر بقدره يخطط كما يحلو له في الحياة والممات!

تابع سيرهُ متجاهلا أمر ذلك الغريب، لا يريد التأكد من هويته، فليكن من يكون، لا يأبه بوجوده أو عدمه ولن يهدر وقته في البحث عن الحقيقة، سيان الأمر عنده أن يكون هو نادل الشاي أو لا, ولن يهتم على الاطلاق.

تحاول (زينة) الخروج من إيقاعات خطواتها السريعة لتطغى عليها إيقاعات قلبها الثقيلة, وكأن حجرا يحتل مساحته ضاغطا، تبطىء عند مرتفع تذوب في أعلاه صفرة الشمس الحائرة، الأذان يملأ السكون والغروب في عجلة من أمره. تستعرض الأفق فتلتقي عيناها بمئذنة البلدة المنيرة وصوت المؤذن يخترق عمق السماء، يزلزل الكون مستمرا في الصلاة.
بحثت عن أطفال حارتها وحتى وصولها عتبة دارها لم تلتقِ أحدا منهم, رصدت الأبواب المغلقة للبيوت المجاورة وحتى المقهى القريب، أين ذهبت غوغاء المرتادين؟ انحنت أمام فراشة رائعة برق جناحاها بنور مصباح علق على جدار باب دارها الرئيس, راقبتها وهي تبتعد, شدّت أنظارها, استدرجتها حتى غابت.

عزمت على أن تعطي جسدها المرهق لسريرها البارد وتنام كعانس، تتخذ وسادتها كبقايا ذكريات، ستنام مؤجلة الأحلام، لن تسمح لها اختراق سباتها، سترمي الهواجس خارج غرفتها، لن تدع الرياح تخترق نافذتها فتؤرقها، ولن تسمح لكوابيس رحلتها من مطاردتها، ولن تنهض فجرا مع دمدمة الطيور، ستفقد حواسها وتستلقي بلا شيء، ستكون كصحراء قاحلة، سترخي أطرافها كعجوز تكسو قدميها جواربَ سميكة. وتغلف صدرها بمنامة حتى أعلى عنقها، تدس قدميها تحت غطاء ربما لن يكفيها.

كان الباب مفتوحا، دخلت دون أن تضغط على مفتاح الإضاءة، تعرف الطريق جيدا وحتى مخدعها تخترقها بين العتمة، ترمي جسدها فوق سريرها وتسرج أنفاسها في نوم عميق.
ارتجفت أصابعها، جفناها اهتزا، ارتعشت أوصالها، سقطت إبتسامة من ثغرها، تبعثرت أناملها تلمس جسدا يلتصق بها وتصرخ في أعماقها:
- " إنهُ يشاركني سريري".
تفتح عينيها وبسذاجة تقول:
- كم من الوقت مرّ وأنتَ تشاركني إياه ؟
- منذ لحظات فقط ، أشتاق إليكِ يا (زينة).
استدارت تمسح أركان غرفتها بنظراتها الباهتة:
- أنا أيضا أشتاق إليكَ.

ترى صورتها تحتل جدارا مقابلا:
- كم جميلة هذه الصورة يا (حازم)! هل تذكرها؟
- طبعا أتذكرها من الآن فصاعدا ستشاركنا الغرفة، لن أبقيها وحيدة في غرفة مغلقة.
خطت نحوها حافية القدمين، لم يكن هناك جوارب، تتأملها وكأنها تراها لأول مرة:
- أحبها، بل أعشقها، إنها جزء مني ومنكَ.

اقتربت من النافذة فتراءت لها الشجرة المحاذية عارية، استرسلت بنظراتها حيث الحديقة والشمس ترمي بهاءها داخل الغرفة مما زادها اشعاعا، تسرب النور من بين خصلات شعرها المسدل على كتفيها، حاضرة بقدها الممشوق تظهر تفاصيله من تحت منامتها، أصبحت شفافة تكشف جزءا كبيرا من جسدها، والضوء المنبعث يشق ساقيها، فخديها فأردافها، ذراعيها البيضاوين، صدرها بنهديها الناهضين، مؤخرتها وظهرها العاري، تشير بإصبعها إلى الحديقة هامسة:
- ما تزال الحديقة جميلة، أرى شجرة ورد جديدة هناك، مليئة بباقات الزهور البيضاء.
- مثلكِ، كلما مرت بك الأيام تصبحين أكثر جمالا وروعة .
يحيط خصرها بيده فيما تميل هي بجسدها إليه، متلاصقين حاملين قلبين يزهوان بفرحة شجية، يملأهما شغاف الحب ويغمرهما جبروت العشق.
- يا طفلتي الشقية، من الآن وإلى الأبد ستمارسين الرسم طالما تملكين روعة الإبداع، تدونين السعادة، لا لزوم للوحات الماضي العابسة، أتلفيها وسأغذي روحكِ بحناني، سأكون لكِ ملهما وتكونين لي ملهمة، تحافظين على روحي بدوام عشقكِ، سنكون معا طالما نتشارك ذات الحلم.

يعقد قرانه عليها، يأخذ يدها يلبسها خاتم زواج ويمسح قبلة عليها. تبحث عن أصبعه تتفقد خاتمه، يحتفظ به, يطوف داخل عينيها يكحلهما بنظراته الحنونة، يسلّ نضارة خديها ويعبث بشعرها، يتوّج رأسها بورد أبيض وطرحة طويلة، تخفي براءة عاشقة متيمة، تهفو الى روحه، تراهُ عروسا في أبهى حلة، يمسح بيديه وجنتي عروسه، يجردها من حزنها، مهام العريس الآن مغايرة، إرواء وردة ذابلة وتنفيذ مهام محتمة لهذه الساعة، إرجاع شباب غضّ لروحين متعانقين متحدين والمضي معا إلى عهد الوفاء، يديران العالم بابهامهما، طالما يؤمنان وأحدهما بالآخر، يغمرانه سعادة ويقضيان على البؤس متمردين.

تغفو داخل حقيقة ثابتة، ساكنة، هادئة، تعطي ظهرها للفجر الذي لاح خلف زجاج نافذتها الموصدة بإحكام . دفع البحر إليها ريحا عاصفة...هاج عليها...اهتزت وأقتلعت ورود السعادة من حديقتها, قذفها بصفيره، بجبروتهِ وقسوتهِ... إنهُ يقسو عليها الآن...يرتّل آخر مزمور لديهِ... يأخذ بثأر حبيب مغادر يصاحبه اليأس. كُسرت النافذة أشلاءً... اندفعت إلى الريح وحطّت في حضنها، أفاقتها من أحلامها... غاصت (زينة) بالواقع متألمة...لم يشاركها الحبيب السرير... تطوي جراح الذكريات النازفة، تركل الشظايا بقدميها المكسوتين, يأويها سرير فارغ بارد... يشفّ عن وحدتها.

انتهت